

مكتبة
الشعراوى الاسلامية

محمد متولى الشعراوى

القضاء والقدر

القضاء والقدر



بسم الله الرحمن الرحيم

بعد حمد الله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله.

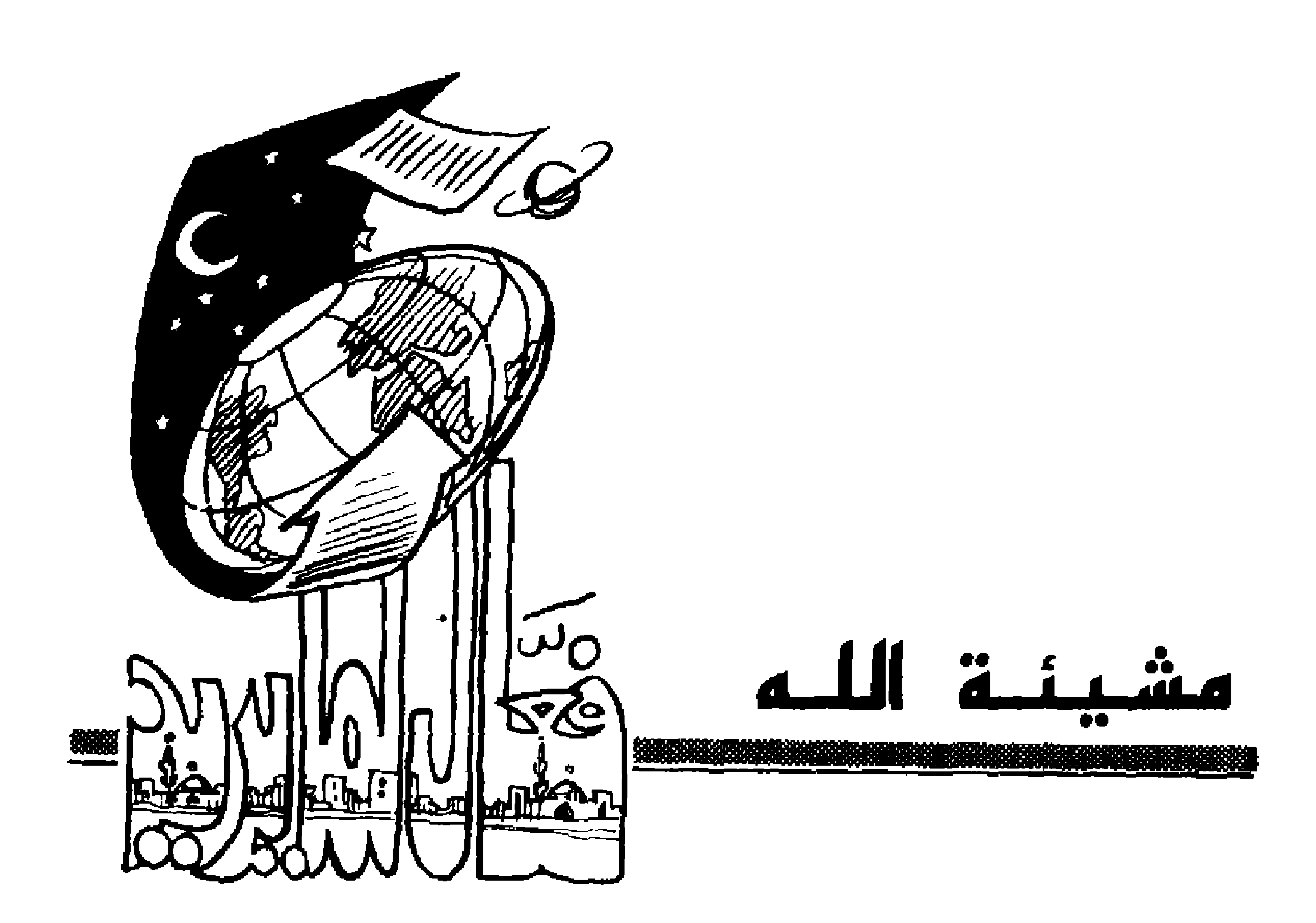
أسأل الله أن تكون هذه الكتب التى ستصدر عن مكتبتى خطوة على طريق الهدى ونور أمتنا الإسلامية بالإيمان والله نسأل الهداية والتوفيق.

محمد متولى الشعراوى

الغـلاف والرسـوم

الفنان سيد عبدالفتاح

الفصل الأول



مشيئة الله

ما من قضية أثارت جدلا بين الناس مثل قضية القضاء والقدر . . ذلك أن كل إنسان يريد أن يجادل فيها بعلم أو بغير علم . . ويتساءل معها إذا كان كل شىء مكتوباً ومقدراً . . فلماذا الحساب ؟ . . وهل أستطيع أنا أن أفعل إلا ما يشاء الله ؟ . . ثم يمضى السؤال . . إذا كانت هذه هى الحقيقة ، فلماذا يعذبنى الله فى النار ؟ . . وإذا كنت لا أستطيع أن أفعل إلا ما قدره الله لى . . فهل من العدل أن أحاسب فى الآخرة ؟ .

وهذا السؤال لا تجده إلا على ألسنة الذين أسرفوا على أنفسهم وعصوا الله . . فلا تجد أحدا يقول بالمقابل . . إذا كان كل شىء مكتوباً . . فلماذا يدخلنى الله الجنة وينعمنى فيها ؟ . . ذلك سؤال لا تسمعه أبدا . . وإنما تسمع دائما من يقول لك إن الحساب ليس عدلا . . لأن كل شىء مكتوب ، وكل شىء هو من قدر الله . . والله سبحانه وتعالى قد أعطى للإنسان حرية الاختيار فى حياته . . ومن هنا جاء السؤال . . ذلك أن الحرية الممنوحة للإنسان . . ظن بعض الناس أنها تتصادم مع مشيئة الله فى الكون . . مع أن الحقيقة غير ذلك تماما . . ويستشهد بعض الناس بالآيات الكريمة :

﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

(الآية ٣٠ من سورة الإنسان)

وقوله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾

(الآية ٥٦ من سورة القصص)

وقوله جل جلاله :

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾

(من الآية ٨ من سورة فاطر)

فإذا كانت هذه هى الآيات .. وهذه هى مشيئة الله .. فكيف نحاسب يوم القيامة ؟ .. نقول : إن الله سبحانه وتعالى له ما يشاء فى كونه .. ولا يوجد فى كون الله شىء يخرج .. أو يستطيع أن يخرج عن مشيئة الله .. تلك هى الحقيقة التى نبدأ بها .. ومع هذه الحقيقة فإن الناس هم الذين يلقون بأنفسهم إلى التهلكة .. وخلق الله هم الذين يفعلون ما يجعلهم يستحقون عذاب الله .. أو يستحقون رحمته .. كما يقول الله جل جلاله :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

(الآية ٤٤ من سورة يونس)





الكون .. والاختيار

وبداية . . فإن الله تبارك وتعالى . . خلق كل كونه على أساس الاختيار . . ولكن هناك من اختاروا مرة واحدة . . فاختاروا أن يكونوا مقهورين . . وهناك من اختاروا أن يعطوا الاختيار المتعدد . . بحيث أصبح لكل منهم اختيار طوال فترة حياته الدنيوية . . هناك الملائكة ، وهؤلاء ستر الله عنا كيف خلقوا . . وهم يسبحون الله بالليل والنهار . . ولا يعصون الله ما أمرهم . . مصداقا لقوله جلا جلاله :

﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾

(الآية ٢٠ من سورة الأنبياء)

وقوله سبحانه وتعالى :

﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾

(الآية ٦ من سورة التحريم)

هؤلاء الملائكة هم الذين يوكل الله سبحانه وتعالى إليهم ما يشاء فى كونه . . فكل شىء فى الكون موكل به ملك حسبما يشاء الله جلا جلاله . . منهم حملة العرش والملائكة المقربون إلى الحق سبحانه وتعالى . . والعالون ، وملائكة الموت ، والملائكة المكلفون بالإنسان كالحفظة الكرام . . الذين يكتبون ما يفعله البشر من أعمال وغيرهم وغيرهم .

ومن الأجناس التى اختارت القهر . . فهى مقهورة على اختيار منها . . كل أجناس الكون ماعدا الإنس والجان . . فإذا قرأنا قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾

(الآية ٧٢ من سورة الأحزاب)

نعرف أن السموات والأرض والجبال وغيرها من المخلوقات عُرضت عليها الأمانة أو حرية الاختيار . . أى عُرض عليها أن تكون مختارة قادرة على الطاعة . . وقادرة على المعصية . . ولكن أجناس الكون ماعدا الإنس والجن رفضت الاختيار . . وقالت يارب لا نقدر على أنفسنا . . ولا نقدر على حمل الأمانة فاجعلنا يارب مقهورين . . ولولا أن الله سبحانه وتعالى أخبرنا بهذا فى كتابه العزيز . . لما عرفنا أن الأمانة عُرضت على السموات والأرض والجبال وغيرها . . وانهم اختاروا أن يكونوا مقهورين . . ورفضوا حمل الأمانة التى حملها الإنسان .

ولكن ما هى الأمانة ؟ . . الأمانة هى أن يأتمنك إنسان على شىء يودعه عندك وترده له عندما يطلبه . . بشرط ألا يكون هناك شىء مكتوب . . أو شهادة من الناس على أنه قد أودع

عندك هذا الشيء . . فإذا أعطاك إنسان مثلا ألف جنيه وأخذ إيصالا أو شيكا أو كمبيالة بالمبلغ . . فهذا لا يعتبر أمانة . . وإنما يكون إيداعاً عليه دليل . . وإذا أعطاك الإنسان الألف جنيه . . ثم أشهد عددا من الناس عليك . . فإن هذا لا يعتبر أمانة . . ولكن إيداع عليه شهود . .أما إذا حدث هذا بينك وبينه . . دون أى شهود أو دليل . . فهذه هى الأمانة . . والله تبارك وتعالى عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال . . ولكنها رفضت . . لماذا ؟ . . لأنها أحست بعدم قدرتها على الأداء . . ذلك أنه إذا أودع عندك شخص مبلغا من المال كأمانة . . قد تصادفك ظروف صعبة فتمد يدك إليه وتأخذ منه على أمل أن ترده . . وقد تتصرف فى المبلغ كله وأنت تعتقد أنك ساعة الأداء قادر على رده . . ثم يأتى وقت الأداء فلا تجد المال وتكون قد ضيعت الأمانة . . ولكن الإنسان قبل أن يحمل الأمانة . . صور له عقله أنه قادر على أن يؤديها . . وإنه يستطيع أن يتبع منهج الله . . ويؤدى حق الله سبحانه وتعالى فى الصلاة والشكر والعبادة وما كلفه الله به . . وعندما بدأ رحلة حمل الأمانة وهى الحياة الدنيا . . أغراه الشيطان فانطلق فى المعصية . . وأشرك بالله . . ثم عبد الأحجار والشمس . . والقمر والنجوم والحيوان وغير ذلك فأضاع الأمانة . . وعندما جاء الموت وقت الأداء . . قابل الله ولم يستطع أن يؤدى الأمانة التى حملها .

إذن فباختيار الإنسان حمل الأمانة . . ولكن هل حملها رغما عن الله سبحانه وتعالى ؟ . . هل الإنسان هو الذى أعطى لنفسه حرية الاختيار فى أن يفعل أو لا يفعل . . أم أن الذى أعطاه هذه الحرية هو الحق سبحانه وتعالى ؟ . . طبعا الإنسان لم يعط لنفسه شيئا . . ولكن الله سبحانه وتعالى شاءت قدرته أن يعطى الإنسان الاختيار فخلق مختارا . . ولو أن الله جل جلاله شاء أن يخلق الإنسان مقهورا لحدث ذلك . . ولذلك يلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى تلك الحقيقة فى قوله جلا جلاله :

﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾

(الآية ٤ من سورة الشعراء)

وقوله جل جلاله :

﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾

(الآية ٣١ من سورة الرعد)

إذن فإن أحدا فى الكون لم يأخذ شيئا إلا بمشيئة الله . . الأجناس التى اختارت القهر أخذت القهر بمشيئة الله سبحانه وتعالى . . والأجناس المختارة أخذت الاختيار بمشيئة الحق جلا جلاله . . فكل ما فى الكون خاضع لمشيئة خالقه . . المقهور على الطاعة أخذها بمشيئه الله تبارك وتعالى . . والقادر على المعصية

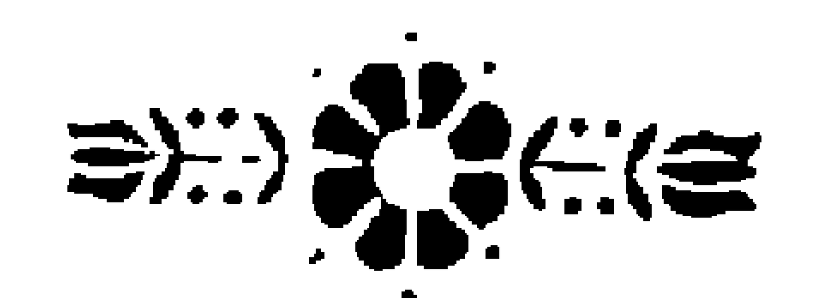
أخذها بمشيئة الله . . لا هذا خرج عن المشيئة . . ولا هذا خرج عن المشيئة . . وبذلك يكون الإنسان قد خُلق مختارا . . لأن الله سبحانه وتعالى أراد له أن يكون مختارا . . وعدل الله أبى أن يُقهر الإنسان على الاختيار . . ولكن الاختيار عُرض على الإنسان فقبله . . والعرض جاء بمشيئة الله .

والسؤال هنا لماذا خُلق الإنسان مختارا ؟ . . نقول إن كل خلق الله سبحانه وتعالى . . المقهور على الطاعة ، إنما يثبت لله صفات الجلال والقهر . . فى أنه يستطيع أن يقهر من يشاء على ما يشاء . . ولكن هناك صفة المحبوبية لله سبحانه وتعالى فى كونه . . وهذه الصفة لا يمكن أن يثبتها لله . . إلا خلق يأتونه عن حب وليس عن قهر . . يعبدونه لأنهم يحبونه . . ويطيعونه لأنهم يحبون طاعته . . ولا يتم ذلك إلا أن يكون هذا الخلق قادراً على الإيمان وقادراً على عدم الإيمان . . قادراً على الطاعة وقادراً على المعصية . .

خلق يقول يا رب إنى أحبك ولذلك آمنت بك . . دون أن يكون هناك قهر بل حب . . يارب إنى أحب طاعتك ولذلك أطيعك . . لا عن قهر ولكن عن حب . . سأفعل يارب ما أمرتنى به وابتعد عما نهيتنى عنه . . وإن كنتُ قادراً يارب على أن أفعل المعصية . . يزينها لى هوى نفسى . . ويزينها لى

شياطين الإنس والجن . . ولكن يارب حبك فى قلبى أكبر من حب الدنيا كلها . . وكل ما تريده منى يا إله الكون أن أفعله . . فسأحب أن أفعله ، لأنى أحبك يا الله . . وأحب رضاك .

هذا هو معنى الاختيار فى الكون . . الله سبحانه وتعالى لا يريد قوالب تخضع . . ولكنه يريد قلوبا تخشع . . ولذلك فهو يريد أن يأتيه الإنسان بقلب محب عاشق . . والإيمان هو اختبار لحب الله فى القلب . . فإذا كان حب الله فى قلبك عظيما . . كان إيمانك بمنهجه أعظم . . وإذا كان حبك لله ضعيفا . . ابتعدت عن منهجه وذهبت بعيدا .





ولكن الحق تبارك وتعالى وهو يخلق الإنسان . . ذلك الكائن الذى سيأتيه عن حب . . أراد أن يجعله سيدا لهذا الكون . . مكافأة له على طاعته عن اختيار . . وأراد أن يعده للامتحان الصعب . . الذى سيمر به فى فترة الحياة الدنيا . . ذلك أن هوى النفس ووسوسة الشيطان وزينة المعصية . . كل هذا محتاج إلى قوة وقدرة ، لكى لا يقع الإنسان فى المعصية . . فأعطاه إرادة أشياء . . أعطاه كونا يخدمه . . وهذا الكون فيه كل ما يحفظ حياته واستمرار هذه الحياة . . الشمس تعطيه الدفء وتنير له النهار ليسعى فى عمارة الكون كما أمره الله . . والأرض تعطيه الطعام ليس فقط القوت الضرورى للحياة . . بل تعطيه كمالية الاختيار . . فتنتج له أصنافا مختلفة يختار منها ما يشاء . . خضر كثيرة وفاكهة لها مذاقات مميزة . . وأنعام تعطيه اللحم طعاما والصوف متاعا . . وماء ينزل من السماء ليحفظ حياته . . ويعطى الحياة لكل ما يخدمه من حيوان ونبات . . وهكذا أعطى الحق سبحانه وتعالى للإنسان كونا فيه كل مقومات حياته . . حتى لا ينشغل بمقومات الحياة عن عبادة واهب الحياة .

وكانت هذه هى الميزة الأولى التى خص بها الله سبحانه وتعالى هذا الإنسان المختار . . أما الميزة الثانية . . فهى أنه جعل هذه

الأشياء كلها التى تعطى الإنسان مقومات حياته مسخرة لخدمته . . أى أنها لا تستطيع أن تمتنع عن أداء مهمتها فى الحياة . . فالشمس لا تستطيع أن تقول سأشرق اليوم ولن أشرق غدا . . والقمر لا يمكنه أن يغادر السماء فجأة ويختفى . . والريح لا تستطيع أن تبتعد عن الأرض . . وتمنع عن الإنسان الحياة . . والأرض لا تستطيع أن تقول لن أنبت الزرع . . وكل شىء يخدم الإنسان فى الكون يؤدى مهمته على أكمل وجه . .

وهذا الكون المقهور هو الكون الصالح الثابت . . الذى لا يُتعب أحدا ولا يُفسد شيئا . . قوانينه محكمة ومستمرة ومنفذة بأمر الله . . وذلك حتى يطمئن الإنسان على وجوده وبقائه . . وثبات هذا البقاء واستمراره . . فلا هو مشغول بأن تشرق الشمس فى موعدها . . ولا هو حائر يبحث عن وسيلة ليأتيه الماء من السماء . . ولا هو مسئول عن تعاقب الليل والنهار . . ولا هو محتاج لأن يبحث عن الوسائل . . التى تبقى له الغلاف الجوى حول الأرض . . الله أعفاه من هذا كله حتى لا ينشغل بالكون عن خالق الكون .



وجاءت الميزة الثالثة . . أراد الحق سبحانه وتعالى أن يعرف الإنسان . . أن هناك إلها قادرا أوجد له كل هذه الأشياء وسخرها لخدمته . . وأن هذا الإله هو الذى خلقه وخلق هذا الكون . . فجعل الأشياء ـ التى هى أقوى من الإنسان ملايين المرات . . والتى لا يستطيع أحد أن يدعى أنه صنعها ـ فى خدمة الإنسان . . فالشمس تستطيع أن تحرق الكون كله . . دون أن يملك الإنسان دفع ضررها . . والشمس فى قدرتها وقوتها . . لا يستطيع البشر جميعا أن يدعوا أنهم صنعوها أو أوجدوها . .

ثم جعل الحق تبارك وتعالى الشمس تعطينا ما نحتاجه ، ومنع عنا بحكمته وعلمه ودقة صنعه ضررها . . وكذلك البحار تستطيع أن تُغرق الكون كله . . ولكن الله سبحانه وتعالى جعلها تعطينا الأسماك بأنواعها . . وتعطينا ما نأكله ، وما نتزين به كاللؤلؤ والمرجان . وجعلها تحمل سفننا من بلد إلى آخر ، ومنع عنا ضررها . . وكذلك الأرض تستطيع أن تهتز بقوة فتدمر الإنسان وكل ما بناه . . ولكن الحق سبحانه وتعالى أخضعها . . وجعلها ساكنة لنعيش عليها .

ثم أعطانا الحق جل جلاله الميزة الرابعة الأذن لتسمع . . والعين لترى . . واللسان ليتكلم . . وكل الحواس التى تعطينا

علما بما حولنا . . وأعطانا العقل الذى يستطيع أن يميز . .

كل هذه الأشياء التى تخدمنا لا يمكن أن يصنعها بشر . . لنعرف أن هناك قوة هائلة . . قد خلقت هذا الكون وأوجدته لنا وهى فوق قدراتنا وقوتنا . . وفى ذلك يقول الحق جل جلاله :

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

(الآية ٧٨ من سورة النحل)

وجعل الحق سبحانه وتعالى كل الآيات فى كونه . . التى تدل على أنه جل جلاله هو الخالق . . واضحة ظاهرة . . حتى لا يتعب العقل البشرى فى البحث عنها أو محاولة الوصول إليها . . فلم يجعلها الحق سبحانه وتعالى خافية ولا مختفية . . ولا جعل من الصعب الوصول إليها . . بل جعل كل إنسان يراها ويشهدها بلا تعب . . كما نرى الشمس والقمر والنجوم . . ونرى الزرع والأرض ونستنشق الهواء . . ونرى آيات الله هى التى تلفتنا . . وكأنها تعلن عن نفسها وتعلن عن خالقها . . دون ما جهد شاق منا . .

ثم طلب الحق سبحانه وتعالى أن ننظر فى الكون لنرى هذه الآيات . . ذلك حتى لا نشغل أنفسنا ونتوه فى البحث عن آيات

الله فى كونه . . نشغل أنفسنا بالمخلوق وننسى الخالق . . فالعقل البشرى على عمومه دون ثقافة . . يستطيع أن يرى هذه الآيات بسهولة وأن يعرفها . . وهكذا شاء الحق أن يجعلنا ننشغل به وننشغل بحبه . . دون أن نتوه فى آيات غير واضحة فى كون الله .





الإنسان .. والشيطان

ثم جاءت الميزة الخامسة . . أراد الحق سبحانه وتعالى قبل أن نبدأ فترة الاختبار . . أن يعلمنا أننا سنتعرض لإغراء الشيطان . . وإن هذا الإغراء هو إغراء كاذب . . وأن الشيطان عدو لنا . . يخدعنا بالأمنيات التى لا تتحقق . . ويوسوس لنا بالأكاذيب التى لا ظل لها من الواقع . . ويحاول أن يبعدنا عن طريق حب الله وطاعته . . فكانت تجربة آدم وحواء . . اسكنهما الله الجنة وأباح لهما أن يأكلا من كل ثمارها إلا شجرة واحدة . . تماما كما أباح الحق سبحانه وتعالى لنا فى الدنيا الكثير . . وحرم علينا أقل القليل . .

كان آدم وحواء فى الجنة مباح لهماكل الثمار إلا شجرة واحدة . . وجاء الشيطان يغريهما بالأكل من الشجرة . . وكذب عليهما . . وقال إن ثمار هذه الشجرة ستعطيهما الخلود وتعطيهما ملكا لايفنى . . وأقسم الشيطان كذبا . . وصدقه آدم وحواء فأكلا من الشجرة . . فإذا بها بدلا من أن تعطيهما الخلود أظهرت عوراتهما . وبدلا من أن تعطيهما المال الذى لا يفنى . . أخذت منهما رزق الله الذى كان يأتيهما بلا تعب ولا عمل . . فنزلا إلى الأرض ليتعبا ويعملا ويعانيا فى سبيل الرزق . . وكان ذلك مقدمة للحياة الدنيا . . وما سيفعله الشيطان فيها من الأمنيات

الكاذبة التى يمنى بها الإنسان ليوقعه فى المعاصى .

وحتى لا يخاف الإنسان من الشيطان .. ويغلبه الخوف فينسيه العبادة .. أخبره الله سبحانه وتعالى بأن الشيطان كيده ضعيف .. أى أنه لا يستطيع أن يغلب الإنسان إلا إذا أطاعه الإنسان .. وأخبرنا جلا جلاله أيضا أن الشيطان ليس له قوة ليجعلنا نفعل ما لا نريد .. فالله لم يعطه لا قوة القهر .. ليقهرنا على أن نعصى .. ولا قوة الإقناع ليجعلنا نقتنع بالمعصية ونفعلها .. كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ﴾ (الآية ٢٢ من سورة إبراهيم)

أى أنه ليس للشيطان قوة يقهرنا بها على المعصية أو يقنعنا بها .. ثم أراد جل جلاله أن يريحنا من كل هذا .. فقال إننا إذا عبدناه بإخلاص وأحببناه بصدق .. فهو سبحانه وتعالى سيكفينا شر الشيطان .. وذلك مصداقا لقوله سبحانه :

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾

(الآيات ٣٩ - ٤٢ من سورة الحجر)

وهكذا أراد الحق سبحانه وتعالى .. أن يخبرنا بأن كل من

التصق به وأخلص له الحب والعبادة .. فلن يصل إليه الشيطان .. ولن تؤثر فيه وسوسته .. فإذا ضعفت النفس البشرية .. فإن الحق سبحانه وتعالى أخبرنا أن نستعيذ به .. فيذهب عنا إغواء الشيطان .. وفى ذلك يقول الحق جل جلاله :

﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾ ﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾

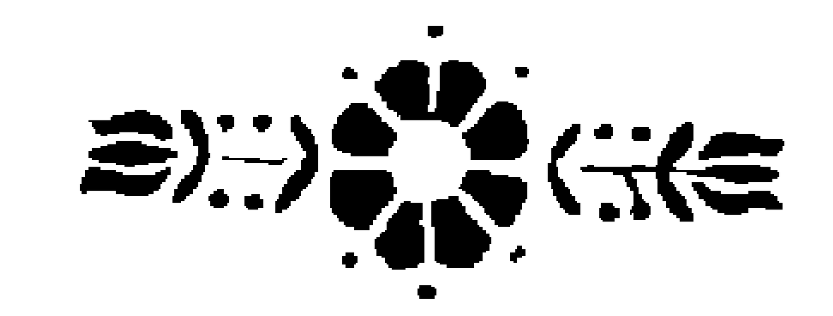
(الآيتان ٩٧ و ٩٨ من سورة المؤمنون)

ويقول تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾

(الآية ٢٠١ من سورة الأعراف)

وبذلك يكون الحق سبحانه وتعالى .. قد بين لنا الطريق للتغلب على الشيطان .. وما علينا إلا أن نستعيذ بالله ونخلص له العبادة .. حتى لا يشل تفكيرنا الخوف من الشيطان وكيده وإغوائه .





وأشهدنا على نفسه

ثم جاءت الميزة السادسة وهى أن الحق سبحانه وتعالى أشهدنا على نفسه ونحن فى عالم الذر . . وبذلك أوجد فطرة الإيمان فى نفوسنا . . بحيث أصبحنا بالفطرة مؤمنين بالله الخالق العظيم . . وكانت هذه الشهادة حتى لا نأتى مجادلين يوم القيامة . . والإنسان كثير الجدل . . ولذلك أصبح كل منا إذا ذكر أمامه اسم الله . . وجد فى نفسه إلفا . . وفهما . . مع أن الله غيْب عنا . . ولكن فطرة الإيمان وضعها فينا قبل أن نأتى إلى الحياة الدنيا ونبدأ التجربة مع الاختيار الذى شاءه الله لنا وقبلناه . . فقال عز من قائل :

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ۝ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾

(الآيتان ١٧٢ و ١٧٣ من سورة الأعراف)

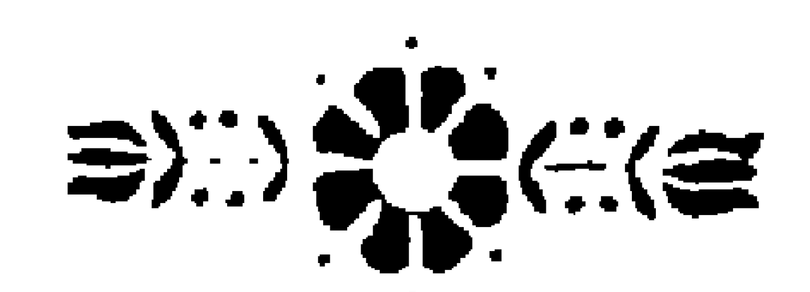
إلى هنا نكون قد بينا أننا خلقنا بالاختيار . . الذى شاءه الله لنا وقبلناه . . فيكون خلقنا مختارين يتفق مع الآية الكريمة :

﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

(الآية ٣٠ من سورة الإنسان)

لأن الله شاء لنا أولا أن نكون مختارين . . واختيارنا نابع من مشيئة الله سبحانه وتعالى . . ويكون هذا الاختيار قد وضع الحق جل جلاله له ضمانات . . فى خلق الكون وفى آياته فى كونه . . وفى رحلة الحياة . . بحيث لا يشغلنا شىء عن عبادة الله التى خلقنا لها . . وعن حب الله الذى أعد لنا هذه الحياة . . وأن الحق سبحانه وتعالى حين أرسل لنا رسله . . لتبين لنا المنهج الصالح الذى نتبعه . . كان كل ذلك من حب الله لنا . . بل إن حبه سبحانه وتعالى . . شاء ألا يتعبنا لمعرفة أن الخالق هو الله . . وأنه يريد منا أن نفعل كذا وكذا . . فجاءت الرسل لتخبرنا بأن الخالق والموجد هو الله . . وأنه يريد منا أن نحبه ونعبده . . بمنهج ميسر مفصل طبقه الرسل أمام خلق الله . . فوقانا بذلك من حيرة العقول بحثا عن الخالق وما يريده ممن خلق .

ولكن الاختيار البشرى لم يكن اختيارا مطلقا . . بل كان اختيارا محدودا فى منهج الله . . فى إفعل ولا تفعل . .





الفصل الثانى



الاختيار البشرى

الانسان خلق مختارا . . ولكن هل أعطى الانسان مطلق الاختيار ؟ . . بعض السطحيين الذين يدعون انهم متحررون . . ويتبعون عقولهم وأفكارهم . . يقولون بحماس : نعم نحن لنا مطلق الاختيار . . بل ان بعض الناس قد ذهب إلى أبعد من ذلك . . فقالوا ان الانسان الذكى يستطيع أن يصنع قدره . . وأن يضع نفسه فى المكان الذى يريده من الحياة . .

نقول لهؤلاء جميعا لا تتسرعوا . . فإن ما تقولونه يكذبه الواقع . . وتكذبه الحياة بكل أحداثها . . الانسان لم يعطه الحق سبحانه وتعالى اختيارا مطلقا . . وانما أعطاه الاختيار الذى يتناسب مع مهمته فى الحياة . . فالله سبحانه وتعالى حكيم . . ولذلك فكل شىء يفعله بحكمة . . والله تبارك وتعالى عليم . . فكل شىء يتم فى كونه بعلم وليس بفوضى أو بعفوية . . أو بأشياء تحدث هكذا لا ترابط بينها . . والانسان فى حقيقته لم يعط الاختيار المطلق فى الحياة . .

وإذا استعرض كل منا شريط حياته . . بل إذا نظر داخل نفسه وداخل جسده . . يجد أن هناك أشياء كثيرة لا تخضع لحريته أو اختياره . . بل ان معظم حياة الانسان لا تخضع لاختياره . .

ولنبدأ القصة من أولها . . عندما يأتى الانسان إلى هذا الكون . . عندما يبدأ أول لحظة فى حياته . . ويدخل أول هواء فى رئتيه . . لحظة مولده . . أهو الذى اختار مكان مولده ؟ . .

أو يوم مولده ؟ أو ساعة ميلاده ؟ . . لا أحد منا يختار لحظة ميلاده فى الدنيا . . بل كلنا يأتى للحياة بقدر الله سبحانه وتعالى . . فبداية الحياة لكل بشر ليست من اختياره . . ومكان هذه البداية ليس من اختياره . . وجنسه . . هل هو ذكر أم أنثى ليس من اختياره . . وجنسيته هل هو عربى أم بريطانى أم أمريكى لا اختيار له فيه . . ثم بعد ذلك يأتى جسده . . أطويل هو أم قصير ؟ . . ما هو لون عينيه ؟ . . ما هو لون شعره ؟ . . ما هى صورة وجهه ؟ . . من هو أبوه ومن هى أمه ؟ . . هل هو صحيح السمع سليم البصر ؟ . . هل هو سليم اليدين والقدمين ؟ . . فى جسده عيب أو مرض أم هو صحيح ؟ . . كل هذا وغيره لا اختيار للانسان فيه . . ومن هنا فقد نبهنا الحق سبحانه وتعالى . . الى محدودية الاختيار فى الانسان منذ لحظة ميلاده . . وفى ذلك يقول جل جلاله :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٦ سورة آل عمران)

وهكذا نسب الحق تبارك وتعالى كل ما يتعلق بلحظة الميلاد والتكوين البشرى الى طلاقة قدرته وحده . . ولم يعط للانسان اختيارا فى أن يولد أبيض أو أسود . . صحيحا أو مريضا . . ولا فى صورة وجهه . . ولا فى تكوين جسده . .



الاختيـار وحـدوده

الذين يقولون إن الانسان أعطى فى هذا الكون اختيارا مطلقا . . نقول لهم إن لحظة الميلاد تكذبكم . . فالانسان حتى لحظة ميلاده خارج عن الاختيار . .

وإذا أردنا أن نكمل الصورة . . ننتقل من الميلاد وهو لحظة المجىء إلى الدنيا . . إلى الموت وهو لحظة مغادرة الدنيا . . هل يملك الانسان اختيارا فى الموت ؟ . . أيملك أن يقول إذا جاء الأجل لن أموت الآن ؟ . . أو سأؤجل الموت إلى الغد ؟ . . أو إلى العام القادم ؟ . . طبعا لا . . الله سبحانه وتعالى لفتنا إلى هذه الحقيقة فى كثير من آيات القرآن الكريم . . فقال جل جلاله :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾

(الآية ٣٤ من سـورة الاعـراف)

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى عن الذين يعتقدون أن الموت مرتبط بأحداث الدنيا . . كالحرب مثلا أو الغزوات . . ويعتقدون أن جلوس الانسان فى بيته . . آمنا مطمئنا يجعل الموت لا يأتيه . . فيقول عز من قائل :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ﴾

(من الآية ١٥٦ سـورة آل عمـران)

وقوله جل جلاله :

﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

(الآية ١٦٨ من سورة آل عمران)

والآيتان الكريمتان تحدثنا عن الكافرين والمنافقين .. وكيف انهم ربطوا الموت بإرادة بشرية وبأحداث كونية .. ففى الآية الأولى قال الكافرون لاخوانهم : انهم إذا سافروا وخاطروا فى الحياة .. أو ذهبوا الى غزوة من الغزوات ثم أدركهم الموت أو القتل .. انهم إن لم يفعلوا ذلك ما ماتوا ولا قتلوا .. فكأنهم ربطوا موعد الموت ومكانه بالسعى فى الأرض .. أو بالذهاب إلى القتال .. وجعلوا ذلك سببا دنيويا للموت .. وحسبوا أن هؤلاء الذين جاء أجلهم .. فقضى عليهم بالموت أو القتل .. حسبوا أنهم لو جلسوا فى منازلهم .. ولم يتحركوا لكانوا من الأحياء وما جاءهم الموت .. والموت قضاء من الله سبحانه وتعالى لا أسباب له .. فالموت بدون أسباب هو السبب .. مات لأن أجله انتهى .. فقد يعيش ذلك المقاتل الذى حارب عشرات الغزوات .. وقد يموت من لا يغادر حجرة نومه .. وخالد بن الوليد القائد الذى حارب عشرات الغزوات مات على سريره .. وقال وهو يحتضر : لقد حضرت غزوات كذا وكذا زحفا .. وما فى جسدى موضع شبر إلا فيه ضربة بسيف أو رمية بسهم أو طعنة برمح وهأنذا أموت على فراشى حتف أنفى كما

يموت العير ، فلا نامت أعين الجبناء .

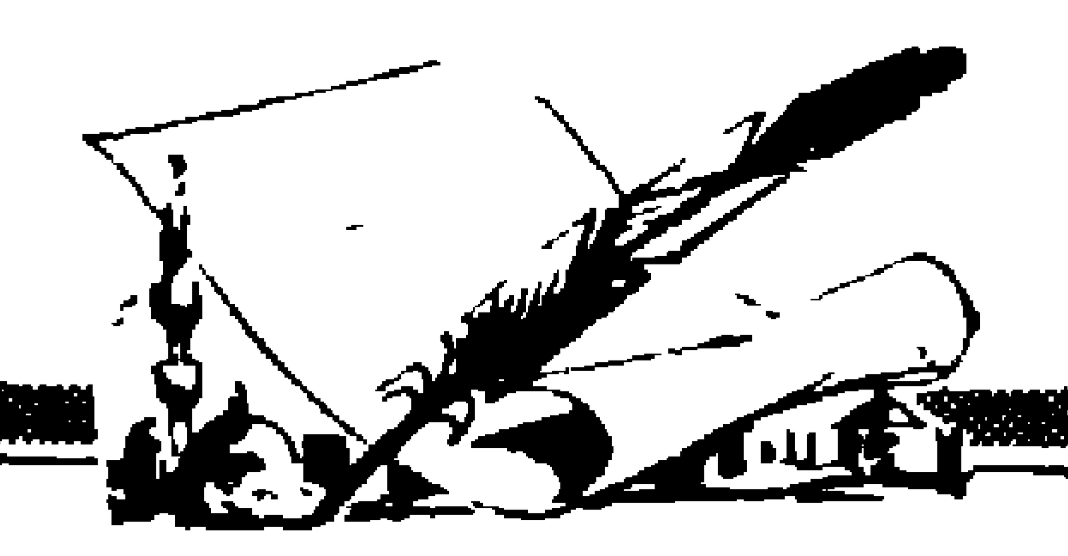
وهكذا نرى أنه لا علاقة للأجل بوجود الانسان فى غزوة أو فى حرب أو غيابه عنها .. فقد يموت ذلكَ الذى لم يغادر بيته .. ويعود الذى ذهب إلى القتال سالما ..

ثم يرد الحق سبحانه وتعالى بالحجة البالغة .. فى الآية الثانية على قول المنافقين الذين قعدوا ولم يذهبوا إلى الجهاد .. وهم يتحدثون مع إخوانهم من المنافقين .. لو أطاعنا المؤمنون ولم يذهبوا إلى القتال أو الحرب .. ما قتلوا ولكانوا أحياء معنا .. فيرد عليهم الحق تبارك وتعالى .. أنتم لم تذهبوا إلى القتال وقعدتم وتخلفتم .. فإذا جاءكم الموت ردوه عن أنفسكم إن كنتم صادقين فى منطقكم الذى تدعونه .. وطبعا لا يستطيع أحد رد الموت إذا جاء أجله .. سواء كان فى ميدان القتال .. أو كان مختبئا فى بيته ، أو كان فى أى مكان .. بل إن الحق سبحانه وتعالى يوضح لنا تماما هذه المسألة .. فى الآيات التى نزلت فى غزوة أحد .. عندما جاءت الهزيمة للمسلمين .. وقال المنافقون والمترددون فى أنفسهم انهم لو كان بيدهم الأمر ما ذهبوا إلى القتال وما قتلوا .. فيرد عليهم الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾

(من الآية ١٥٤ من سورة آل عمران)

أى أنهم قد أخفوا فى أنفسهم هذا الكلام . . ولم يبدوه لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يكشفهم وأن يُعلم به رسوله عليه الصلاة والسلام . . وأن يعطيهم الرد على ما قالوه . . والرد هنا جاء من السماء . . من الحق جل جلاله . . فبعد أن أخبر الحق رسوله بما يدور فى أنفس هؤلاء . . طلب من رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم . . أن وجودهم فى ساحة القتال لا يأتيهم بالموت ولا يدفعه عنهم . . لأنهم لو كانوا فى بيوتهم لخرج الذين كتب عليهم القتل إلى المكان الذى سيقتلون فيه . . ويكون مضجعهم الأخير . . أى أن الحذر والبعد عن الخطر لا يطيل عمرا ولا يزيد حياة . . لأن هذا قدر الله وقدر الله نافذ . . حتى أن الذى كتب عليه الموت . . يسعى جاهدا ليذهب إلى المكان الذى يموت فيه . . فتجد إنسانا يصر ويسعى على ركوب طائرة مثلا . . ويتحايل ليجد له مكانا فيها . . بينما فى ركوب هذه الطائرة أجله . . لأن الطائرة ستسقط ويموت كل من فيها . . وتجد إنسانا آخر يسعى جاهدا للذهاب إلى مكان معين . . وربما تحمل مشاق كثيرة فى سبيل ذلك . . ليصل إلى هذا المكان فيجد الموت فى انتظاره . . فالموت قدر من الله لا يفلت منه أحد . .



ويزيد الحق سبحانه وتعالى هذه القضية ايضاحا .. فيقول جل جلاله :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾ (من الآية ٢٤٣ - سورة البقرة)

وهذه الآية نزلت فى أهل قرية انتشر فيها وباء ، فخاف أهلها من الموت وخرجوا جميعا .. فأراد الله سبحانه وتعالى أن يعلمهم أنه لا فرار من قضاء الله .. وأن الله سبحانه وتعالى إذا قضى عليهم الموت فلن ينجيهم الخروج من القرية التى هم فيها إلى مكان آخر - فأماتهم الله ثم أحياهم بدعاء أنبيائهم .

إذن فالفرار من الموت مستحيل .. والموت له أجل محدد .. لا يتأخر دقيقة ولا يتقدم .. ولقد ستر الله سبب الموت وستر زمنه .. حتى لا يفهم أحد أنها عملية ميكانيكية .. يولد الانسان ثم يتقدم به العمر فيموت .. أى أن هناك زمنا محددا لحياة كل فرد فينا .. نولد فإذا بلغنا الستين أو السبعين نموت .. ولذلك فإن طلاقة قدرة الله قد جعلت الموت بلا أسباب .. فالجنين يموت فى بطن أمه .. والمريض يموت بسبب المرض .. والصحيح يموت ولا نعرف لموته سببا .. والطفل يموت والشاب يموت والعجوز يموت .. إذن فهذا يحدث بأمر الله .. ولا تنفع معه الأسباب ، لأنه ربما كان هناك مريضان بمرض واحد ..

ويعالجان عند طبيب واحد . . أحدهما يموت بعد أيام والآخر يعيش سنوات طويلة . .

على أن هناك جدلا يثيره بعض الناس فى مسألة الموت فيأتى واحد ويقول أنا أحكم على هذا بالاعدام فيموت . . أو أنا أستطيع أن أميت . . بأن أمسك مدفعا أو مسدسا أو سكينا . . وأقتل الانسان الذى أريده أن يموت فيموت . . إذن فالحديث عن الأجل نجد بعض الناس يحاولون التشكيك فيه . . وهم يدعون أن الموت يمكن أن يكون فى يد بشر . . فإذا أردت أن أميت إنسانا قتلته فمات . . نقول انكم خلطتم بين الموت وبين القتل . . الله سبحانه وتعالى وحده هو الذى يميت . . أما الانسان فإنه لا يميت ولكنه يقتل . . وإذا قرأت قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ﴾

(من الآية ١٤٤ ـ سورة آل عمران)

إذن الموت غير القتل ، لأن الحق سبحانه وتعالى قال : « مات أو قتل » . . والحق جل جلاله فرق بين الموت والقتل فى آيات كثيرة فى القرآن الكريم منها قوله تبارك وتعالى :

﴿ لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ ﴾

(من الآية ١٥٦ ـ سورة آل عمران)

وقوله تعالى :

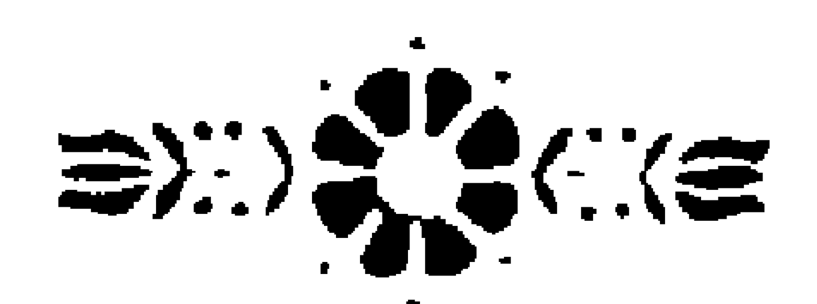
﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ ﴾

(من الآية ٥٨ ـ سورة الحج)

وقوله سبحانه :

﴿ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾

(من الآية ١٥٨ ـ سورة آل عمران)





المـوت والقتـل

إذن الموت غير القتل .. ذلك أنه فى حالة الموت .. يأتى الموت أولا ثم بعد ذلك ينقض بناء الجسد .. ولكن فى حالة القتل لابد أن تهدم أو تنقض بناء الجسد أولا ، فيترتب على ذلك الموت .. بأن تضرب إنسانا على رأسه فتهشمها .. أو تفرغ عدة طلقات فى قلبه أو رأسه أو غير ذلك .. إذن ففى حالة القتل لابد أن تهدم الجسد أولا .. فتخرج منه الروح ويحدث الموت .. الموت سلب للحياة أولا .. ثم بعد ذلك ينهدم الجسد .. وهذا لا يحدث إلا من الحق سبحانه وتعالى ولا يملكه الانسان .. والقتل هدم الجسد أولا فتسلب الحياة .. ولذلك فإن الذى حاج ابراهيم فى ربه .. وكان الله قد أتاه الملك ، فقال له ابراهيم وهما يتحاوران حول الحياة والموت :

﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ ﴾

(من الآية ٢٥٨ ـ سـورة البقـرة)

ولقد كان هذا الملك كاذبا فيما قاله .. لأن الحياة والموت هما من الحق سبحانه وتعالى .. ولكن الانسان يملك القتل ولا يملك الموت ..

بذلك نكون قد وصلنا الى نقطتين ليس فيهما اختيار للانسان وهما الحياة والموت .. ثم تأتى بعد ذلك نقطة ثالثة تخرج عن اختيار الانسان .. تلك هى النوم .. والنوم مازال معجزة تحير الدنيا كلها وسيظل .. ذلك أن النوم هو عالم مجهول للدنيا

كلها . . فالانسان بمجرد أن يغمض عينيه . . ينتقل من قانون إلى قانون آخر مختلف تماما . . وينتقل فى لحظة . . فالانسان فى حياة اليقظة يسمع بأذنيه . . ويرى بعينيه . . ويتكلم بلسانه . . ويمشى بقدميه . . وهو محدود فى الزمان والمكان . . تحكمه قوانين معروفة . . فلا يمكن للانسان مثلا فى عالم اليقظة . . أن يسافر من مصر إلى أمريكا إلا فى عدة ساعات . . وبإجراءات وطرق معينة . . فلابد أن يذهب إلى المطار ويمر من الجوازات ويركب الطائرة . . ويقضى عدة ساعات فيها حتى يصل إلى أمريكا . . ويخرج هناك من الجوازات إلى آخر ما يحدث . . والانسان فى قانون اليقظة يرى بعينيه على قدرة الابصار بهما . . فهناك من نظره قوى . . فيرى من مسافة بعيدة . . ومن نظره قصير فهو يرى مسافة قريبة ويحتاج إلى نظارة . . والرؤية تحجبها الأشياء المادية التى أمامه . . فإن كان أمامه حائط مثلا فإنه لا يرى ما وراء هذا الحائط . . والانسان فى عالم اليقظة يمشى بقدميه . . سرعته محدودة حتى إذا أسرع الخطا . . والانسان فى

قانون اليقظة محكوم بماديته . . فإذا سقط من مكان مرتفع قتل أو تهشمت عظامه . . والانسان فى عالم اليقظة محجوب عنه أشياء كثيرة . . فهو لا يرى مثلا الذين انتقلوا إلى رحمة الله ولو وقف على قبورهم . . ولا يستطيع أن يتحدث معهم . . ونستطيع أن نمضى فى قوانين اليقظة التى نعرفها جميعا بلا نهاية . .



ولكن بمجرد أن ينام الانسان تلغى كل هذه القوانين . . فيرى نفسه وقد سافر إلى أمريكا مثلا . . وعاد عدة مرات فى لحظات . . ويرى الانسان أشياء غريبة وأماكن لم يذهب إليها . . كل هذا يراه وهو مغمض العينين . . مع أنه وهو نائم إذا قرب أحد أصبعه من عينى النائم . . حتى كاد يلمسهما فإنه لا يراه ولا يحس به . . لأن العينين مغمضتان . . ولكنه فى نفس الوقت وهو نائم وعيناه مغمضتان يرى ويرى بوضوح . . ويرى أحيانا أشياء غير معقولة . . ولا يناقشه فيها أحد . . مثل ما رأى عزيز مصر فى عصر يوسف على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام . . وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى عما رآه العزيز فى منامه :

﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ ﴾

(من الآية ٤٣ ـ سورة يوسف)

فهل البقر يأكل البقر فى عالم اليقظة ؟ طبعا لا . . لم نشهد هذا . . وهل البقر الهزيل الضعيف هو الذى يأكل البقر السمين القوى ؟ . . طبعا لا . . شىء يرفضه العقل الواعى . .

ويمشى الانسان فى نومه وقدماه فوق السرير لا تتحركان . . وينتقل من مكان إلى آخر وجسده فى موضعه . . لم يتحرك ولا عدة سنتيمترات . . ويرى الانسان فى منامه أولئك الذين

انتقلوا إلى رحمة الله منذ سنوات طويلة .. ويتحدث معهم ويكلمهم ويكلمونه .. ويرى الانسان نفسه شابا وهو كهل .. ويرى نفسه يصارع أسدا فيغلبه ..

. كل هذا وغيره أشياء تحدث لنا ونحن نائمون .. نحلم بها ونراها ولا تحدث خارج منطقة العقل والذاكرة .. لأننا حينما نستيقظ من النوم نستطيع أن نحكى ما رأيناه فى المنام بدقة .. فكأن ذاكرتنا تعى ما رأيناه والا ما استطعنا أن نصفه .. وآلة إدراك بصرى غير العين شاهدت مشاهدة واضحة .. فيها تفاصيل كثيرة .. والا ما استطعنا أن نصف ما شهدناه فى الأحلام .. والحوار الذى حدث مع أولئك الذين انتقلوا إلى العالم الآخر .. حوار نعيه ونعرفه لأننا نستطيع أن نتذكره وأن نرويه .. ربما بنفس العبارات والكلمات ..

إذن فالانسان فى لحظة واحدة .. ينتقل من قوانين إلى قوانين أخرى لا نعرف عنها شيئا .. ولكنها قوانين نخضع لها فى ساعة النوم .. ولكن السؤال هنا .. هل هذه القوانين التى نخضع لها أثناء النوم لنا فيها إرادة واختيار ؟ .. أى هل يستطيع واحد منا وهو نائم أن يختار الأحداث التى يراها فى المنام ؟ .. ويقول سأرى كذا ولن أرى كذا ؟ .. أو سأتحدث مع فلان ولن أتحدث مع فلان ؟ .. أو سأقول كذا ولن أقول كذا ؟ .. أو يقول سأذهب فى منامى الليلة إلى أوربا وفى منامى القادم إلى الاتحاد السوفيتى ؟ .. طبعا لا .. لأن الانسان وهو نائم .. خرج عن

منطقة الاختيار البشرى . . فلم يعد مختارا فيها لا يرى وما يرى . . ولم يعد مستطيعا أن يختار الكلمات التى يتحدث بها . . وتلك التى يخفيها فى نفسه ولا ينطق بها . . ولا هو متحكم فى أى شىء يراه . . ومع أن الرؤية تتفق مع منطق العقل البشرى . . فإذا جاءك انسان وقال لك انى رأيت فى المنام كذا وكذا ، فإنك لا تكذبه . . بل لا تناقشه . . ولكنك تعرف أن هناك مناما ورؤيا فى النوم . . لأنك أحيانا تتعرض لذلك . . فأنت لا تتهمه بأنه جاء بشىء لا يقبله العقل من ناحية ما حدث . . ولكنك تعطى لقوانين العقل فى اليقظة أجازة . . أى لا تتخذها مقياسا لما يحدث فى النوم . . ولا ندخل الرؤيا التى يراها أى انسان فى مجال النقاش العقلى . . ولا نجادله فيها . . لأنك تعرف بحكم تجربتك أنت : أن الانسان قد يرى فى منامه أشياء لا تخضع لقوانين العقل فى اليقظة .

ولكن أحدا لا يستطيع ولن يستطيع أن يعطينا تفسيرا علميا للقوانين التى يخضع لها الانسان وهو نائم . . وكيف ينتقل نفس الشخص من قانون إلى قانون فى لحظة واحدة . . ثم يعود إلى قانون اليقظة بمجرد أن يستيقظ من نومه . . ثم يعود مرة أخرى لقوانين النوم عندما ينام . . ولا يستطيع انسان مهما بلغ علمه أن يحدد لنا كيفية هذا الانتقال من قانون لقانون . . ولا كيف يتم . . ولكننا نعرف أن النوم حقيقة وتجربة يمر بها كل انسان . . بل ونعرف أيضا أننا فى قوانين النوم نخرج عن

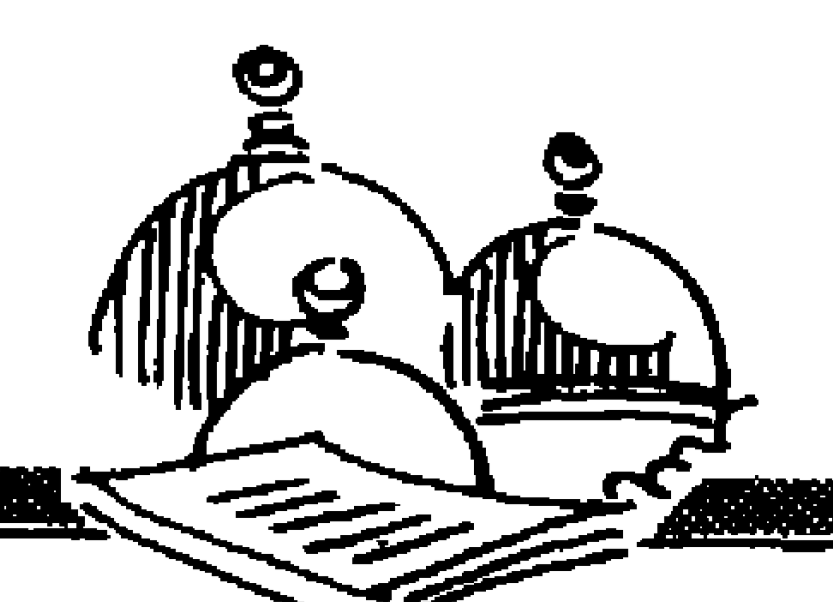
مقاييس الزمن . . ولذلك عندما أنام الله سبحانه وتعالى أهل الكهف . . ثلاثمائة سنة وتسعة بالتقويم الهجرى . . ثم استيقظوا لم يعرفوا كم الوقت الذى مر عليهم وهم نائمون . . ولذلك رغم أنهم ناموا هذه الفترة الطويلة . . ماذا قالوا عندما استيقظوا ؟ . . يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾

(الآية ١٩ ـ سورة الكهف)

إذن فالانسان النائم لا يحس بالزمن . . ولذلك فإن أهل الكهف قاسوا فترة نومهم على عادة الانسان فى النوم . . وهو أن ينام جزءا من اليوم . . فإن كان متعبا ومجهدا قد ينام يوما بأكمله . . ولكن أكثر من ذلك لا يحدث عادة . .

وإذا أردنا أن نقيس ذلك على أنفسنا . . فإننا عندما ننام ونستيقظ من النوم . . لا نعرف عدد الساعات التى قضيناها ونحن نائمون الا إذا نظرنا إلى آلة من آلات قياس الوقت كالساعة . . أو علامة من علامات قياس الوقت كالليل والنهار . . كأن نكون قد نمنا فى ضوء النهار واستيقظنا فى ظلمة الليل أو العكس . . ولكن عدد الساعات بالتحديد لا يمكن أن يعرفها بشر منا . . إلا اذا نظرنا إلى الساعة . .



قوانين .. لن نصل إليها

ولقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يريحنا من البحث عن قوانين النوم ويعرفنا أننا لن نصل إليها .. فقال جل جلاله :

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(الآية ٤٢ من سورة الزمر)

وبذلك نعرف أن النوم يخضع لقوانين البرزخ .. ونحن لا نعرف شيئا عن قوانين الحياة فى البرزخ .. إلا ما أخبرنا الله به .. ولذلك فإننا لن نعرف شيئا عن قوانين النوم .. إلا أن هناك أشياء يبصر بها الانسان غير العينين اللتين نبصر بهما فى اليقظة .. وأن هناك ما يعطى الانسان الحركة غير القدمين اللتين نتحرك بهما فى عالم اليقظة .. وأن هناك كلاما ننطقه بغير اللسان الذى ننطق به فى عالم اليقظة .. وأن عالم البرزخ لا يعتمد على حواس الجسد المادى التى تكون معطلة تماما أثناء النوم .. انما هناك حواس أخرى موجودة فينا .. نستخدمها فى عالم البرزخ .. وأن عالم البرزخ ليس فيه اختيار بشرى .. كما أن النوم ليس فيه اختيار بشرى .. وأنه ليس فيه إحساس بالزمن .. كما اننا لا نحس بالزمن وقت النوم .. واننا نلتقى فيه بمن انتقلوا الى رحمة الله قبلنا .. كما يحدث فى عالم النوم ..

كل ذلك أعطاه الله سبحانه وتعالى لنا رحمة بعقولنا . . ولندرك أن هناك أشياء فى الغيب لا نعرفها ولكنها موجودة . . حتى تقترب من أذهاننا صورة حياة البرزخ . . كما نعرف أن الانتقال من حياة اليقظة إلى حياة البرزخ . . يمكن أن يتم فى لحظة . . فنعرف معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« والله انكم لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون » .

وبذلك نكون قد وصلنا الى أن اختيار الانسان فى الحياة . . ليس اختيارا مطلقا . . وانما هو اختيار محدود . . وبينا انه لا اختيار للانسان فى لحظة مولده . . ولا مكان مولده . . ولا أبويه . . ولا جنسه . . أذكر هو أم أنثى ؟ . . ولا الوطن الذي ولد فيه . . ولا صورته وهيئته . . ولون عينيه وشعره . . إلى آخر ذلك . .

كما انه لا اختيار للانسان فى أجله . . ومتى يموت ؟ . . كذلك لا اختيار للانسان وهو نائم . . وبذلك تكون منطقة الاختيار قد ضاقت قليلا . . ولكنها ستضيق كثيرا وكثيرا جدا . . كلما تقدمنا فى تحديد الاختيار الذى منحه الله لعباده .

الفصل الثالث



الاختيار والجسد

تحدثنا عن ان الانسان لم يعط من الله سبحانه وتعالى الاختيار المطلق . . بل أعطى اختيارا محدودا يناسب مهمته فى الحياة . . وينطبق مع ما يتطلبه منهج الله الذى كلف الانسان به .

والآن ننتقل الى منطقة أخرى . . هى منطقة الجسد البشرى . . لنرى هل الجسد هذا ملك للانسان . . يستطيع أن يفعل به ما يريد . . أم ان الله سبحانه وتعالى أرادنا أن نعرف ان الجسد الانسانى هو ملك الله . . ونحن مستخلفون فيه فقط . . وخلال فترة الحياة الدنيا وهى فترة الاختبار بالنسبة لنا .

الجسد البشرى مقهور لله سبحانه وتعالى فى معظم أجزائه . . بل هو مقهور لله فى كل ما يتصل بالحياة ووظائفها وغير ذلك . . ففى أجسادنا أعضاء كثيرة لا نعرف عنها شيئا . . ولا نحس بها إلا إذا أصابها المرض أو التلف . . ولكنها مادامت تؤدى مهمتها بشكل طبيعى فنحن لا نحس بها .

سنبدأ أولا بتلك الأجزاء . . الموجودة فى أجسادنا والمقهورة لله تبارك وتعالى قهرا كاملا . . ثم ننتقل بعد ذلك الى الأجزاء المقهورة لله جل جلاله . . والتى نملك عليها نوعا من الارادة .

إذا نظرنا الى دورة الحياة فى أجسادنا . . نحن نأكل الطعام . . نمضغه بأسناننا . . ثم ينزل من البلعوم الى المعدة ليهضم فى عملية ميكانيكية معقدة . . ثم الى الأمعاء الدقيقة

ليمتص الغذاء منه . . وهو وقود الحياة البشرية . . فيحمله الدم الى أجزاء الجسم المختلفة وتخرج الفضلات من الأمعاء . . فإذا بدأنا بالطعام . . فهل نملك مما يحدث من تفاعل بين أجسادنا وبين الطعام شيئا ؟ . . الحقيقة لا . . فعندما ينزل الطعام الى المعدة وتفرز عليه العصارات المختلفة . . هذه مسألة قهر . . فلا أحد بإرادته يقول لمعدته افرزى العصارات اللازمة للطعام . . ولا أحد يستطيع أن يوقف فرز هذه العصارات حتى لا تهضم الطعام . . ولكنها عملية تتم داخل أجسادنا ولا نشعر بها . . فإذا عُرض علينا فيلم يوضح لنا ماذا يحدث فى المعدة . . بعد نزول الطعام . . فإننا نتعجب من تلك القدرة الالهية . . التى جعلت كل هذه العمليات تتم فى المعدة . . دون أن ندرى عنها شيئا . . وكثير منا عاش ومات . . ولم يعرف كيف تعمل معدته فى هضم الطعام . . ولا ما هى الغدد التى تفرز عصاراتها ليتم هذا الهضم .

فإذا انتقلنا بعد ذلك الى الكبد مثلا . . وله مهام أساسية فى الجسد . . أنعرف ماذا يفعل الكبد . . وما لا يفعله ؟ . . أنحس بعمله حين يبدأ العمل أو بمهامه التى يقوم بها ؟ . . طبعا لا . . فالكبد قائم بعمله فى الجسد . . دون أن نعرف أو نحس بهذه العملية التى تتم داخل أجسادنا . . بل ربما طوال العمر مادام

لا يحدث اختلال فى الكبد فإننا لا نشعر بوجوده . .

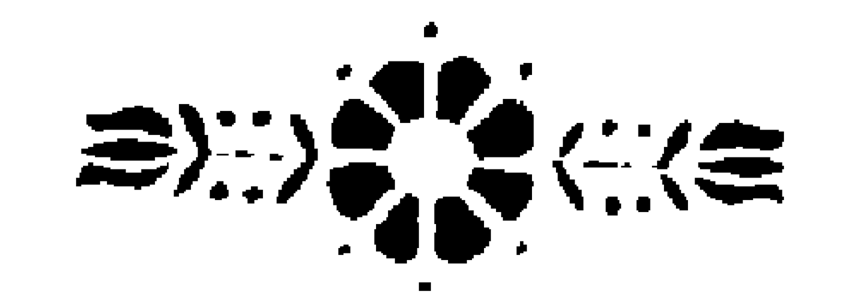
هل نعرف ماذا تفعل الأمعاء الدقيقة ؟ . . وهل تستطيع أن تجعل القلب ينبض حين تريد ؟ . . أو يتوقف عن النبض عندما تريد ؟ . . وفى رئتيك عملية تبادل الأكسوجين وثانى أوكسيد الكربون مستمرة ليلا ونهارا . . فهل أنت الذى تدير هذا التبادل ؟ . . والدورة الدموية فى جسدك وما تفعله . . هل تعرف عنها شيئا ؟ . . عشرات الأشياء التى يتكون منها الدم . . من كرات حمراء وكرات بيضاء وغير ذلك هل تدرى عنه شيئا ؟ .

إن هناك معارك تدور داخل شرايينك . . يدخل الميكروب جسد المريض . . وتبدأ كرات الدم البيضاء فى التصدى له . . وتعد له من أنواع المقاومة ما يقضى على الميكروب ويعيد لك الصحة . . أأنت تفعل ذلك ؟ . . لا طبعا إذن كل هذا مقهور لله سبحانه وتعالى . . لا تدرى أنت عنه شيئا . . وإذا رأيته فإنك تذهل من أن كل هذا يحدث فى جسمك . . وأنت لا تعرف عنه شيئا . .

والأهم من ذلك ان كل هذه العمليات التى تدور فى جسدك . . لا إرادة لك فيها . . ولا سيطرة لك عليها . . أى انها لا تأخذ منك أية تعليمات . . وأنت لا تستطيع أن تجعلها تعمل أو تتوقف . . وهذا من رحمة الله سبحانه وتعالى . .

فلو ان هذه الأشياء تخضع لارادتك لكانت مصيبة كبرى . .

تصور انه مطلوب منك أن تأمر القلب أن يدق . . والمعدة أن تعمل ، والرئة أن تتنفس . . لن يكون عندك وقت لتفعل هذا . . وإذا كان عندك الوقت لما استطعت أن تسعى فى الحياة . . وأن ترتقى بحضارتك . . وأن تطبق منهج الله . . بل لم تكن لتستطيع أن تنام . . وكيف تنام والقلب يعمل بأمر منك . . انه سيتوقف ساعة نومك . . وكيف يستطيع الطفل الصغير الذى لا يدرك شيئا . . أن يجعل هذه الأجهزة تعمل ولا تتوقف .



إذن فأنت مقهور فى معظم أجزاء جسدك . . وهذا القهر جاء من الله جل جلاله رحمة بك . . كى تستطيع الحياة والعمل والسعى . . وإلا لو كنت مختارا فى جسدك . . لما أمكنك أن تبقى على قيد الحياة . .

إذن فمعظم أجزاء الجسد البشرى مقهورة لله سبحانه وتعالى . . تعمل بالقهر وليس بالاختيار . . وتعمل ما شاء الله سبحانه وتعالى لها أن تعمل . . وتتوقف حين يأمرها الخالق بالتوقف . .

إذن ليس لك اختيار فى معظم أجزاء جسدك . . وليس لك علم بها . . إلا ما أراد الله لك أن تعلم عنها . . فإذا شاء جل جلاله اخفاء علم فى جسدك عن البشرية كلها . . أخفاه . . وإذا كنت تستغرب هذه العبارة . . فإن الحق سبحانه وتعالى أخفى عن عباده أمر الروح . . قال تبارك وتعالى :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(الآية ٨٥ من سورة الاسراء)..



وليقل لنا علماء الدنيا كلها أين الروح التى تعطى الحياة للجسد ؟ . . هل هى فى القلب الذى ينبض ؟ . . أم فى العقل الذى يفكر ؟ . . أم فى الدورة الدموية التى لا تتوقف ؟ . . أم فى القدم التى تتحرك ؟ . . أم فى العين التى تبصر ؟ . . أم فى الأذن التى تسمع ؟ . . أين هى ؟ . . سؤال لا يستطيع العلم أن يجيب عليه . . فهو سر لا يعلمه إلا الحق سبحانه وتعالى . . وسيبقى سرا لا يعلمه إلا الله . .

فإذا كانت الروح وهى مخلوق فى جسدك . . تحس بوجودها وتعرف آثارها لأنها هى التى تعطيك الحياة . . ولا تعرف عنها شيئا . . لأن الله سبحانه وتعالى ستر علمها عنك . . فكيف تقول ان جسدك يخضع لارادتك ؟ . . لا.إنه يخضع لارادة من خلقه .

فإذا انتقلنا بعد ذلك الى الأشياء . . التى سخرها الله لارادتك فى جسدك . . فاللسان مثلا سخره الله لارادتك . . لذلك فهو يطيعك إذا أردت أن تشهد أن لا إله إلا الله وينطق بها . . وهو يطيعك إذا أردت أن تنطق كلمة الكفر والعياذ بالله . . وعينك تطيعك إذا أردت أن تنظر الى ما هو حلال . . وأردت أن تتأمل فى آيات الله فى كونه . . أو أن تنظر الى محارم

غيرك والى ما حرمه الله .

واليد تطيعك إن أردت أن تساعد بها عاجزا على عبور الطريق . . وتطيعك إن أردت أن تعتدى بها على ضعيف . . أو تقتل بها عدوك . . والقدم تطيعك فى الذهاب الى المسجد . . أو فى الذهاب الى أماكن الخمر والفجور . .

هذه الجوارح كلها إذا أمرتها بالطاعة أطاعت . . وإذا أمرتها بالمعصية أطاعت . . لا فى هذه أطاعت ، ولا فى هذه عصت . . لأنها من أدوات الاختيار المسخرة لك . . ولكن لابد أن تعرف حقيقتين هامتين . . أولاهما ان هذه الأشياء كلها مسبحة لله سبحانه وتعالى . . والله جل جلاله قد خلق جسمك من تراب . . وذرات التراب التى خلق منها الجسد . . اختارت القهر على الطاعة . . ولذلك فهى مسبحة بذاتها . . تطيع الكافر فيما يريده . . ولكنها فى نفس الوقت تلعنه . . ويوم القيامة تشهد عليه وتكون شهادتها سببا فى دخوله النار . . واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

(الآية ٢٤ من سورة النور)..

وقوله جل جلاله :

﴿ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ

﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

(الآية ٢١ من سورة فصلت)

إذن فكل الجوارح التى تخضع لاختيارك .. تخضع ظاهرا فقط .. ولكنها فى حقيقتها مسبحة لله .. ويوم القيامة حين يدخل الكافر النار .. تكون هذه الأجساد فى قمة السعادة لأنها تسبب الألم للكافر .. وتعذبه جزاء له على معصيته ..

وإذا أردت أن تخوض تجربة حسية تؤكد لك هذه المعانى .. فانظر الى الناس فى موسم الحج .. تجد انهم لا ينامون من الليل إلا قليلا .. ومع ذلك فإن أجسادهم تتحمل هذا التعب وقلة النوم بطريقة مذهلة ، فيقوم الانسان بعد ساعة أو ساعتين من نومة وهو فى غاية النشاط .. لماذا ؟ .. لأن جسده المسبح لله مستريحا بالتسبيح والصلاة وكل مناسك الحج .. ولذلك فهو لا يريد من صاحبه أن يغفل أو ينام .. عن ذكر الله وعن التسبيح والصلاة إلا أقل القليل .. وبهذا الانسجام لا يحس الانسان المؤمن بتعب فى جسده أبدا ..

ولكن الانسان الكافر الذى لا يفعل إلا المعاصى تجد ذرات جسده متعبة من المعصية .. ولذلك فهو ينام ولا يقوم إلا عند الظهر .. وإذا قام يشعر انه يريد أن ينام مرة أخرى .. لأن

أجزاء جسده المتعبة من المعاصى الكارهة لها . . تريد أن تستريح من المعصية . . والطريقة الوحيدة التى تبعد هذا الكافر عن المعاصى هى النوم . . فيبدو الجسد متعبا منهكا . . يدفع صاحبه الى النوم فترات طويلة . . ولذلك عندما يذهب الناس للحج . . تسمع كثيرا منهم يقول لك لقد كانت عندى قوة غريبة وأنا أؤدى مناسك الحج . . كنت لا أنام من الليل إلا أقله . . ومع ذلك كنت فى غاية النشاط . . لم أشعر بالحاجة الى النوم أبدا . . وأحس اننى أريد أن أبقى مستيقظا طوال الليل والنهار .

إن ذلك يحدث . . ولكن أحدا لا يتنبه الى السبب . . وهو أن ذرات الجسد منسجمة مع الطاعة لخالقها . . فلا تريد أن تغفل عن الطاعة إلا أقل القليل . . هذه هى حقيقة الايمان بالنسبة للجسد البشرى .



إذن هناك أعضاء فى جسدك مقهورة لا تخضع لاختيارك . . وأعضاء أخرى تخضع لاختيارك بتسخير الله لها أن تطيعك وليس بذاتية منك . . ولكن الله سبحانه وتعالى الذى أعطاك الاختيار . . قد جعل هذه الأجزاء من جسدك خاضعة لأمرك لتكون شاهدا عليك يوم القيامة لما تقدمه من خير الطاعات . . وفيما ترتكبه من شرور المعاصى .

ولقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يلفتنا الى ذلك . . حتى لا نحسب ان هذه الجوارح خاضعة لنا بقدراتنا الذاتية . . ولذلك فنحن نحسب أننا نبصر مثلا بقدرتنا الذاتية وهناك من له عينان مفتوحتان ولا يبصر . . ولو كان الابصار ذاتيا فى الانسان لما وُجِدَ من له عينان ولا يبصر . . وجعل الله سبحانه وتعالى من له قدمان ولا يستطيع السير . . حتى نعرف ان القدمين لا تسيران بقدرة صاحبهما . . ولكن بقدرة الله سبحانه تعالى . . ولو كانتا تسيران بقدرة صاحبهما . . ما وجد من له قدمان ولا يستطيع السير . . وجعل من له أذن ولكن لا يسمع . . ولو كان السمع بذاتية الأذن . . لسمع كل من له أذنان . . ولتكلم كل من له لسان . .

هذه النماذج القليلة التى أوجدها الله فى كونه . . انما أوجدها

لتلفتنا الى أن جوارحنا مسخرة لنا بقدرة الخالق وليس بقدراتنا . . وعوض هؤلاء جميعا . . الذين سلبهم البصر أو السمع أو القدرة على المشى أو غير ذلك بقدرات تعطيهم ميزات تفوق ما فقدوه بل وأكثر . . وأعطانا أمثلة لقدرته جلا جلاله على ألا تعطل هذه الأشياء أصحابها عن النبوغ فى الحياة . . خصوصا فيما يحتاج هذه الجوارح . . فأوجد الموسيقى الشهير الذى لا يسمع والذى وضع أجمل أنغام الموسيقى رغم انه أصم مثل بتهوفن . . وأوجد من نبغ فى الاطلاع وهو أعمى لا يستطيع القراءة مثل طه حسين . . وأوجد نماذج كثيرة للنبوغ فى أشياء لم يكن الانسان لينبغ فيها بدون حواس فقدها .

ولكنه جل جلاله . . أراد بهذه الأمثلة المحدودة العدد جدا بين البشر أن يعطينا الدليل . . على أن قدرة الانسان على أى شىء ليست ذاتية منه . . ولكنها من الله الذى سخرها له .





وهكذا نرى ان اختيار الانسان فى جسده محدود بالطاقة التى أعطاها الله له . . والتى سخرها لطاعته . . وأن كل ما يستطيع الانسان أن يفعله . . هو أن يوجه هذه الطاقة المخلوقة من الله . . للفعل الذى يريده . . ولكن هل هذا هو مجال الاختيار على مصراعيه ؟ . .

نقول ان هناك أشياء كثيرة فى الحياة الدنيا تخرج عن مجال اختيارك . . وأول هذه الأشياء هو قدرة الله . . فأنت لا اختيار لك فى أقدار الله التى تقع عليك . . فتلك تحدث خارج منطقة الاختيار . . فإذا كنت تسير فى الطريق وصدمتك سيارة . . أو سقط عليك حجر . . أو إذا أصبت بمرض . . فهل هذا يدخل فى منطقة اختيارك ؟ . . أتستطيع أن تمنع حادثا يقع عليك من قدر الله سبحانه وتعالى ؟ . . طبعا لا تستطيع . . أتستطيع أن تمنع مرضا أو تدفعه عن جسدك ؟ . . طبعا لا تستطيع . . فلا قدرة لأحد منا أن يدفع أقدار الله التى تحدث لنا دون اختيار منا . . ودون أن نستطيع لها ردا .

وهذا هو أول الأشياء التى تضيق منطقة الاختيار . . فكلنا خاضعون لأقدار الله لا نستطيع معها عملا . . لا نحن ولا كل من حولنا . . ولذلك فمهما قيل عن الاختيار البشرى . . فإنه

لا يستطيع أن يتعدى الحدود التي رسمها الله سبحانه وتعالى له . . فأنت لا تستطيع أن تدفع ضررا عنك أو عن أولادك كتبه الله تبارك وتعالى عليك . . ولا تستطيع أن توقف نفعا قدره الله جل جلاله لك . . وكلنا فى هذا سواء . . الغنى فينا والفقير . . القوى منا والضعيف . . صاحب النفوذ والملك والسلطان ومن لا يملك شيئا . . فى ذلك لابد أن نلتفت لقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

(الآية ٢٦ من سورة آل عمران)

وإذا قرأنا هذه الآية نعرف ان المُلْك إنما يأتى من الله . . وليس بتخطيط بشرى . . والله سبحانه وتعالى هو الذى يسبب الأسباب . . لمن يريد أن يؤتيه المُلْك فيمكنه منه . .

وكم لعبت الأقدار أدوارا كثيرة ليجد انسان نفسه قد مُكِّن من المُلْك دون أن يكون فى قدرته أن يأخذه . . فكل الناس تريد المُلك وكل الناس تسعى له . . ولكنه لا يأتى إلا بقدر من الله سبحانه وتعالى . . لأنه هو مالك المُلْك الحقيقى . . فالأرض ومن فيها وما عليها مِلْك لله سبحانه وتعالى . . والله يؤتى ملكه

من يشاء .. ولو ان الملك يحصل عليه البشر بقدراتهم الذاتية لاحتفظوا به ولما نزع منهم .. ولكن قوله تبارك وتعالى :

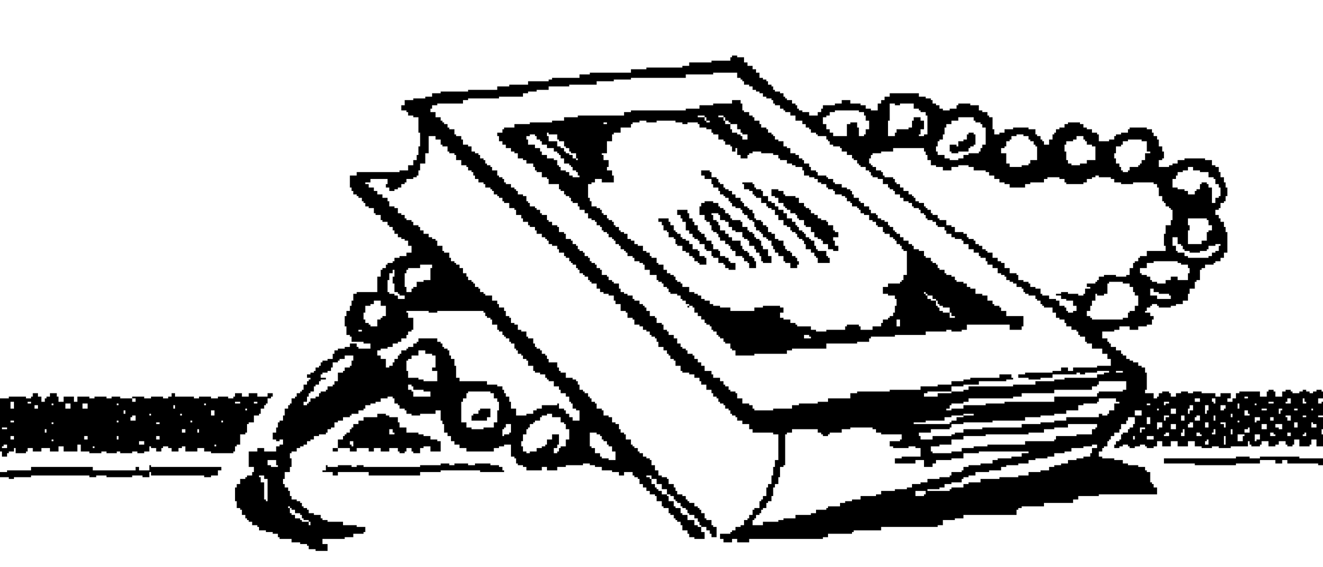
﴿ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾

(الآية ٢٦ من سورة آل عمران)

.. دليل على ان الملك ينتزع انتزاعا من البشر .. وأن أحدا لا يرغب أبدا فى أن يتركه باختياره .. بل لابد أن ينتزع منه رغما عنه .

ولذلك تجد ذلك الذى على قمة السلطة .. تطاع أوامره ويخضع الكل له .. فى لحظة واحدة يأتى أمر الله .. فإذا بأقرب الناس اليه قد تخلوا عنه .. ويصبح خائفا يحاول أن ينجو بحياته بأى ثمن .. وأن يجد ملجأ يختبىء فيه ..

زوال الملك عنه ليس بقدراته .. ولكنه بقدرات الله سبحانه وتعالى .. والمسألة كلها مسألة استخلاف فى الأرض .. فلا يعتقد أحد انه يأخذ الملك بذاته وقدراته .. ولا انه يحتفظ به بذاته وقدراته .. بل الله تبارك وتعالى يعطى الملك لمن يشاء ويمنعه عمن يشاء .

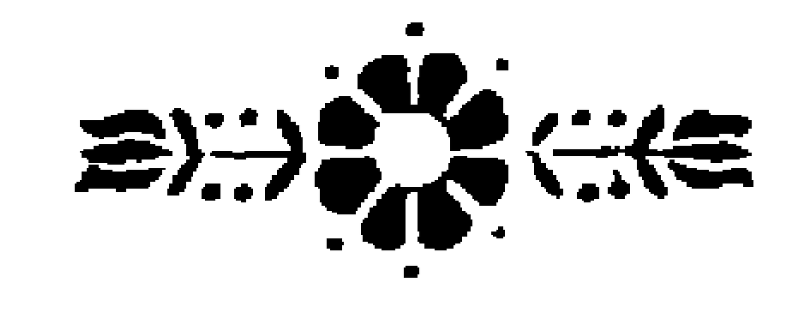


إذن أحداث الكون هى أقدار الله سبحانه وتعالى . . وهو المراد الفعلى له فى كونه . . ولا يستطيع أحد أن يمنع أو أن يوقف . . أو أن يفعل أى شىء فى مراد الله الفعلى فى كونه . . بل هو نافذ على الجميع ولا اختيار فيه .

إن الأحداث التى تقع بقدر الله خارجة عن منطقة الاختيار . . ويخرج عن الاختيار أيضا الأحداث التى تقع عليك من غيرك . . هذه لا اختيار لك فيها . . فإذا كنت تمشى فى الطريق وجاءك أحد وضربك بالقلم . . أو قذفك بحجر أو أطلق عليك رصاصة . . أو هاجمك فى بيتك . . كل هذه الأحداث وغيرها التى تقع عليك من انسان آخر تخرج عن دائرة الاختيار أيضا . . فأنت لا اختيار لك فى أن يعتدى عليك انسان بالقول أو بالفعل . . كأن يسمعك ما تكره أو يعتدى عليك بالضرب أو بالقتل . . كل هذا خارج عن اختيارك البشرى . .

وبذلك تكون دائرة الاختيار قد ضاقت . . بحيث أصبحت تقتصر على شىء واحد هو ما تفعله أنت . . أو مايصدر منك من قول أو فعل . . أما باقى أحداث الدنيا كلها فلا اختيار لك فيها . . لا اختيار لك فى ميلادك . . ولا فى موتك . . ولا فى ساعات نومك . . ولا فيما يقع عليك من أقدار الله سبحانه

وتعالى . . ولا فيما يقع عليك من غيرك . . وبقيت الدائرة الوحيدة . . وهى ما تفعله أنت . . وحتى هذه الدائرة الضيقة فإن اختيارك فيها محدود بجزء منها . . أما الباقى فلا اختيار لك فيه .



الفصل الرابع



الاختيار والتكليف

حديثنا عن القضاء والقدر والاختيار وصل إلى نقطة محدودة .. وهو أنه لا اختيار لك إلا فيما تفعله أنت .. ولكن حتى هذا ليس فيه اختيار مطلق .. وإنما فيه اختيار محدود .. وليس كل ما تريد أن تفعله أنت خاضعا لاختيارك .. بل إن الذى يخضع لهذا الاختيار قليل .

وقبل أن نبدأ الحديث .. لابد أن نعرف ما هو الفعل ؟ .. هناك القول وهناك العمل وهناك الفعل .. كل منها له معنى مختلف .. فالقول هو عمل اللسان .. ومهمته أن يقول .. وكل كلام هو من اللسان .. والعمل مهمة الجوارح .. فالجوارح هى التى تعمل .. أى تنفذ ما يريده الإنسان .. والفعل هو اتفاق القول والعمل .. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (الآيتان ٢ و٣ من سورة الصف)

إذن هناك قول وعمل وفعل .. الإنسان قد يملك القول .. ولكنه لا يملك الفعل .. لماذا ؟ .. لأن الفعل له شروط لا تخضع لاختيار الإنسان .. وأول هذه الشروط هو الزمان والمكان .. فكل فعل محتاج إلى زمان وإلى مكان .. وقياس

الزمن يتم بالأحداث التى تقع .. أى بالأفعال التى تحدث ..

ولكى يتم أى شىء فى حياة البشر .. لابد له من زمن ولو عدة ثوان .. وفى حياتنا الدنيوية نقيس حياتنا بالزمن .. فهذا العمل يستغرق عاما .. وهذا العمل يستغرق عامين .. وهذا حدث منذ مائة سنة .. وهذا حدث منذ آلاف السنين .. وهذا سيحدث غدا أو بعد غد .. أو فى العام القادم .. وهذا الرجل عمره عشرون سنة .. وهذا عمره سبعون أو ثمانون سنة ..

إذن أحداث الحياة تقاس عند البشر بالزمن .. والزمن يملكه الله الذى خلقه .. ولكننا نحن لا نملك الزمن .. بل هو الذى يملكنا .. فلا يستطيع إنسان أن يوقف الزمن .. بمعنى أنه لا يملك أن يبقى طفلا لا يكبر .. ولا شابا لا يصل إلى الشيخوخة .. ولا يملك إنسان منا أن يعيد الزمن الماضى .. ويرجع بالأحداث مثلا عاما أو عامين أو عدة أعوام ..

كذلك لا يملك أحد منا الزمن المستقبل .. كأن يجعل عشرين عاما تمر فى يوم واحد مثلا .. وإذا كنا لا نملك الزمن ولا نستطيع أن نتحكم فيه .. فإننا لا نستطيع أن نتحكم فى أحداثه .. وبالتالى فإن أى شىء نفعله خارج عن طاقة اختيارنا بالنسبة للزمن .. فنحن لانملك إلا اللحظة التى نعيش فيها .



ولذلك إذا قلت أننى سأفعل شيئا غدا . . نقول لك قلت ما لا تستطيع أن تفى به ولا تملكه . . لأنك قد لا تعيش إلى الغد حتى تفعل ما قلته . . وإذا عشت إلى الغد . . قد يصيبك مرض يمنعك عن الفعل . . فليست لديك القوة ولا القدرة على التنفيذ . . وقد يأتيك حدث يمنعك . . كأن يمرض أحد أولادك مرضا شديدا أو يموت . . فلا تتم ما كنت تنوى أن تفعله . . وقد يحدث نفس الشىء للطرف المشترك معك فى الفعل . . فلنفرض أنك اتفقت مع إنسان على أن تتقابلا غدا فى مكان معين . . ثم حدث لهذا الرجل ظرف طارىء أو مرض مفاجىء أو جاء أجله . . فلا تتم المقابلة ولا يتم الفعل .

وكل فعل محتاج إلى زمان ومكان . . تلك هى مقاييس الأرض والحياة الدنيا . . فإذا أعطاك الله عنصر الزمان . . فقد لا يعطيك عنصر المكان . . فإذا أردت مثلا أن تبنى عمارة . . فإنك قد تصبح فى الصباح وتجد الدولة قد استولت على الأرض للمنفعة العامة . . أو تجد من يوقف لك البناء مدعيا أن الأرض ملكه . . أو لا تجد المهندس الذى سيشرف على البناء . . أو لاتجد العمال الذين سينفذون . . أو لا تجد مواد البناء التى ستستخدمها . . كل هذا أنت لا تملكه . . فكأنك لا تملك عناصر الفعل . . وإنما الذى يملكها هو الله سبحانه وتعالى . .

ولذلك قال جل جلاله :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّى لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدًا ﴾

(الآيتان ٢٣ و ٢٤ من سورة الكهف)

أى تأدب فى القول . . وأنسب الفعل لمن يملكه . . لا تنسبه لنفسك وتقول سأفعل كذا وكذا . . بل انسب الفعل لله سبحانه وتعالى لأنه هو الذى يملك عناصر الفعل الحقيقية . . فهو سبحانه الذى يملك حياتك . . يبقيك حتى تتم ما أردت أن تفعل . . أو ينهى أجلك قبل أن تفعل . . وهو جل جلاله الذى يملك القوة . . يمنحها لك لتستطيع أن تفعل ، أو يسلبها منك فلا تستطيع أن تفعل . . وهو الذى يملك عنصر المكان . . يبقيه صالحا لتفعل ما تريد . . أو يجعل ما تريده مستحيل التنفيذ . . وهو الذى يملك أن يسخر لك من شاء من عباده . . ينفذون لك ما أردت . . أو لا يسخرهم فلا تستطيع حتى أن تبدأ ما تريد أن تفعله . . فإذا كانت كل عناصر الفعل فى يد الله سبحانه وتعالى . . فأنسب الفضل لصاحبه وقل إن شاء الله .

إذن حدوث الفعل وإتمامه فى يد الله وحده . . ولا يملك أحد منا أن يفعل ما يريد إلا إذا شاء الله . . وإلا إذا أعطاه الحق سبحانه وتعالى الحياة والطاقة ليفعل .

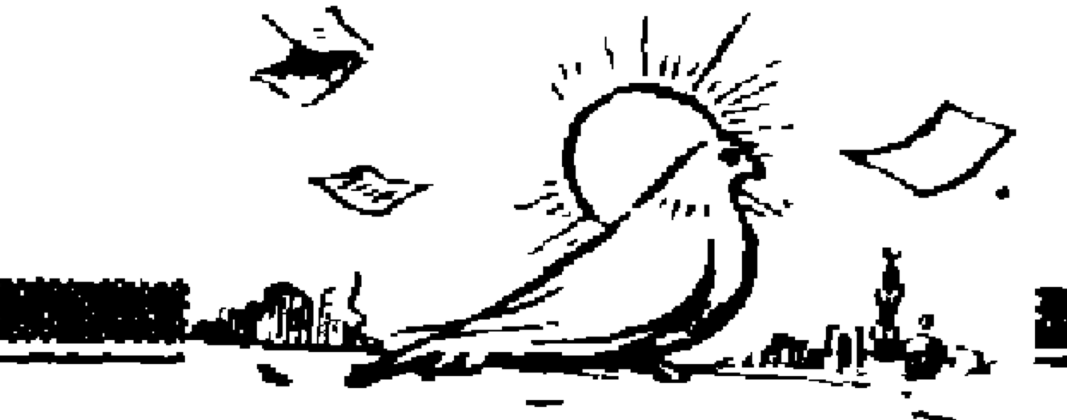
وحتى فى الأشياء المسخرة لك . . التى أخضعها الله سبحانه وتعالى ظاهرا لإرادتك . . لا يتم الفعل إلا بإذن الله . . فالقدم لا تخطو خطوة إلا إذا أعطاها الله القدرة لتخطو . . واليد لا تتحرك إلا إذا أعطاها الله القدرة لتتحرك . . وكثير من الناس يحاول أن يجادل فى هذا الكلام . . نقول له انظر إلى نفسك وإلى حركاتك الاختيارية . . تعلم أنها تتم بقدرة الله سبحانه وتعالى . . فأنت حين تكون جالسا وتريد أن تقوم . . كل ما تفعله هو أنك تريد القيام من مجلسك . . فيعطيك الله القدرة على ذلك ، وإذا كنت تدعى أن هذا باختيار وذاتية منك . . فقل لنا كم عضلة تتحرك وأنت تقوم من مجلسك لتقف ؟ . . كم عضلة تنقبض وكم عضلة تنبسط حتى تستطيع أن تقوم ؟ . .

الجواب أن معظمنا لا يعرف . . ربما يعرف ذلك أولئك الذين تخصصوا فى عضلات الجسم وحركتها . . وحتى هؤلاء يقومون بتلقائية . . ولو أن الإنسان يقوم بقوة ذاتية . . لكان عليه أن يصدر تعليماته لعضلات معينة لتنقبض . . وعضلات معينة لتنبسط . . وكان فى هذه الحالة يستغرق وقتا طويلا فى القيام . . حتى يمكن له أن يقول لعضلات معينة انقبضى . . ثم

يقول لعضلات أخرى انبسطى .

وكذلك عندما يمشى الإنسان .. فهو لا يعرف شيئا عن الحركة الدائرة داخل جسمه فى المشى .. فإذا أراد أن يسرع أو يجرى .. فإن هناك عمليات كثيرة تتم داخل جسده .. القلب يسرع دقاته ليحصل الجسم على كمية زائدة من الأكسجين اللازمة للجرى .. والدورة الدموية تسرع .. والتنفس يصبح متلاحقا .. والعضلات تختلف فى حركتها عن المشى .. كل هذا لا يتم بالاختيار الشخصى .. بل يتم بقدرة الله .. فهو تبارك وتعالى الذى يعطى للجسد القدرة أن يقوم بكل هذا دون اختيار من الإنسان .. ولو أن هذا لم يحدث لكانت الحركة صعبة جدا وبطيئة بالنسبة للبشر .





إذن فالحركات التى نطلق عليها اسم الحركات الإرادية .. أو الحركات الميكانيكية ؟ .. أشياء تتم بسرعة كبيرة .. لا تتفق مع الاختيار البشرى .. فى أن يقول لهذا أن يحدث ، ويقول لهذا لا تحدث ..

إذن فطاقة قدرتها ممنوحة لك من الله سبحانه وتعالى .. ولا يستطيع أى إنسان أن يدعى أنها ذاتية .. أو أنها تحدث باختيار بشرى .. ولكن الحق سبحانه وتعالى وضع فيك هذه الطاقة .. طاقة الحركة .. ثم جعلك مختارا فى توجيهها ..

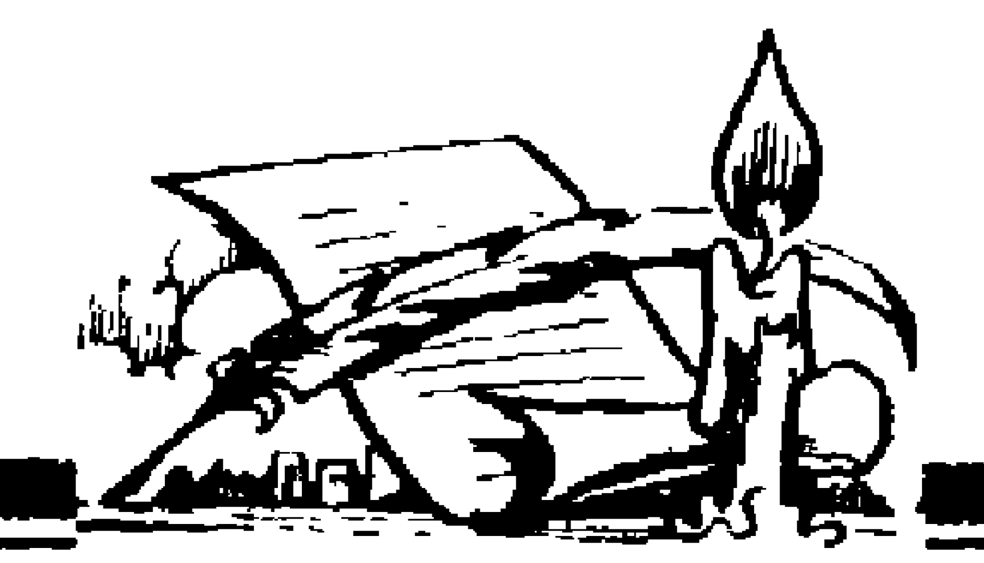
فأنت تستطيع أن توجه الطاقة المخلوقة من الله فيك إلى الخير أو الشر .. تستطيع أن تمشى إلى المسجد .. أو تمشى إلى الخمارة والعياذ بالله .. هذا ليس عن قدرة ذاتية .. فى أنك أنت الذى تمشى .. ولكن طاقة المشى هى من الله .. وأنت وجهت هذه الطاقة إلى الخير أو إلى الشر .

ويدك تستطيع أن تمسك السكين .. لتقطع أى شىء إلى قطع صغيرة تتناسب مع حجم فمك .. حتى يمكن أن تدخلها فيه لتأكلها .. وتستطيع أيضا أن تمسك نفس السكين لتذبح بها إنسانا .. أو تقتل بها شخصا .. أنت فى هذا لم توجد الطاقة فى اليد لتفعل ما فعلت .. بل الطاقة موهوبة لك من الله .. ولكنك وجهت الطاقة الممنوحة لك من الله فى اليد المخلوقة من

الله . . لتفعل الخير أو تفعل الشر .

واللسان يستطيع أن يقول الصدق أو يكذب . . وأن يشهد بالحق أو يشهد زورا . . أو أن يقول كلمة طيبة أو كلمة خبيثة . . ولكنك لا تملك قدرة ذاتية على أن تجعل لسانك ينطق . . بل أنت وجهت طاقة الكلام التى منحها الله للسانك للطاعة أو للمعصية . . وكذلك كل أعضاء جسدك التى تخضع فى الظاهر لاختيارك . . هذا الاختيار ليس ذاتيا . . لأن كل هذه الأعضاء لا تتحرك باختيار منك . . بل تتم حركتها بقدرة الله سبحانه وتعالى التى وضعها فيها . . ولكنك فقط الذى توجهها إلى الخير أو إلى الشر .

هذا هو نطاق الاختيار الذى أعطاه الله لك . . إنه نطاق لتوجيه طاقة إلى الخير أو إلى الشر . . وهذا هو التكليف الذى يتم عليه الحساب . . أو الأمانة التى حملها الإنسان . . والله سبحانه وتعالى شاء أن يخلقنا مختارين . . ولو لم يخلقنا الله مختارين ما كنا نملك اختيارا . . ولكننا مختارون فى مجال التكليف . . وفى الأشياء التى أراد الله سبحانه وتعالى أن يمتعنا بها فى الدنيا من عطاءات ربوبيته . . كأن نختار ما يعجبنا من الطعام والشراب والملبس وغير ذلك . . أما ما عدا هذه الأشياء فلا اختيار لنا فيه .

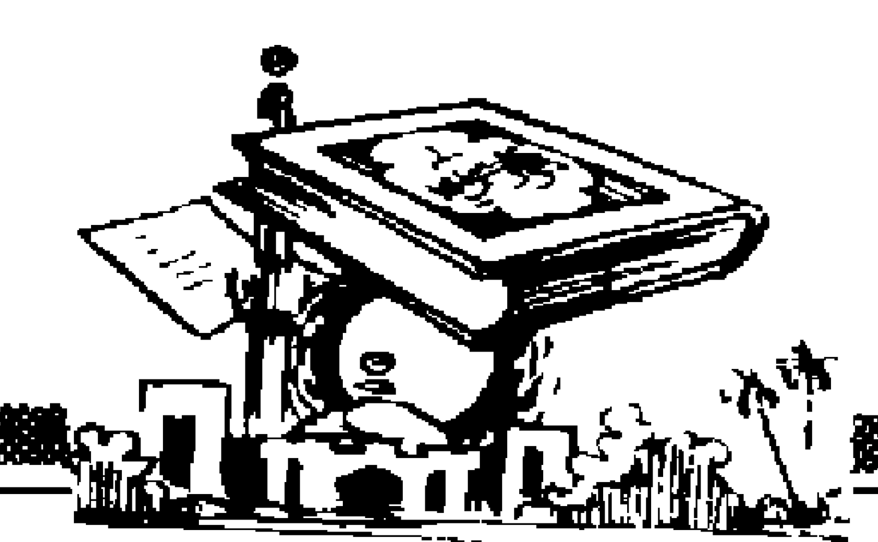


إذن فنحن مختارون فى تطبيق منهج الله .. فى إفعل ولا تفعل .. وهو المنهج الذى سيتم عليه الحساب فى الآخرة .. لأن معنى التكليف تشريع أوامر ونواه .. أى إفعل ولا تفعل .. ولا يصح للإنسان شرعا أن ينقل ما أمره الله به أن يفعل إلى نطاق لا تفعل .. ولا يصح له شرعا أن ينقل لا تفعل إلى نطاق إفعل .. وهذه هى المخالفة .. فأنت تخالف الله فى شرعه .. إذا فعلت ما نهى عنه ولم تفعل ما أمر به .. وهذا هو مجال اختيارك .. وهذا هو الذى سيكون عليه الحساب فى الآخرة .

وهكذا نصل إلى مجال الاختيار الحقيقى للإنسان فى الحياة الدنيا .. أو إلى المنطقة التى خلقها الله سبحانه وتعالى وأعطانا الحرية الكاملة فيها .. بحيث يتم الاختيار بالإرادة الحرة للإنسان .

ولكن لماذا أخالف شرع الله ؟ .. فأفعل ما قال لى لا تفعله .. ولا أفعل ما قال لى سبحانه وتعالى إفعله ؟ .. لأن الله جل جلاله جعلنى مختارا فى هذه النقطة بالذات .. ولو لم يجعلنى مختارا ما كان لى أن أفعل أو لا أفعل .. فأنت تفعل ما يخالف مراد الله شرعا من منطلق أنه أعطاك الاختيار .. إذن فأسبقية مشيئة الله فى أنه جعلنى مختارا .. هى التى أعطتنى القدرة على الاختيار .

معنى التكليف



فإذا وصلنا إلى هذا الفهم نكون قد عرفنا معنى التكليف والاختيار فى البشر . . ونكون قد عرفنا أنه اختيار شرعى . . فى أن أفعل أو لا أفعل . . وأنه هو أساس الحساب فى الآخرة . . ولكن هذا الاختيار قد تتدخل فيه قوة لا أقدر على مقاومتها . . وبذلك أكره على الأشياء ولا أكون مختارا فى المنهج . .

نقول إنه فى هذه الحالة يُرفع التكليف عنك فلا تحاسب . . هذا هو عدل الله . . فالله لا يحاسبك على شىء حبس عنك حرية توجيه طاقتك باختيار كامل منك . . إلى فعل الخير أو فعل الشر . .

هب أن إنسانا جاء وقيدنى بالسلاسل حتى لا أصلى . . هل أُحاسب على عدم الصلاة ؟ . . أم إنه لا حساب على ؟ لنفرض أن إنسانا جاء وأرغمنى بالقوة على أن أسجد لغير الله . . هل أحاسب ؟ الجواب طبعا لا . . لأن الله تبارك وتعالى يقول :

﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾

(الآية ١٠٦ سورة النحل)

إذن فالإكراه مرفوع عنه الحساب . . لأن الله سبحانه وتعالى حين أعطانا الاختيار فى تطبيق المنهج . . أعطاه لنا على أن يتم ذلك بإرادتنا الحرة . . فإن الله سبحانه وتعالى يريد أن نأتيه عن

حب واختيار . . ولذلك فهو جل جلاله يريد منا إثبات صفة المحبوبية لذاته العلية . . فلذلك من أتى معصية عن إكراه وغير اختيار فلا يعاقب عليها . . ومن أتى طاعة بإكراه وبلا اختيار لايثاب عليها . . بل لابد للعبادات أن تثبت صفة المحبوبية لله تبارك وتعالى . . وتثبتها حقا . . فإذا لم يكن هناك حب صادق لله فى القلب المؤمن . . وإذا لم يكن هناك توجه صادق لله . . فإن الأعمال لا تقبل . . ولذلك إذا تصدق رجل مثلا . . ليقال عنه أنه المحسن الكبير . . أو إنه رجل البر والتقوى فلا ثواب له عند الله . . لأنه لم يفعل ذلك عن حب لله سبحانه وتعالى . . ولكنه فعله عن حب للشهرة . . أو حب لمجد دنيوى .

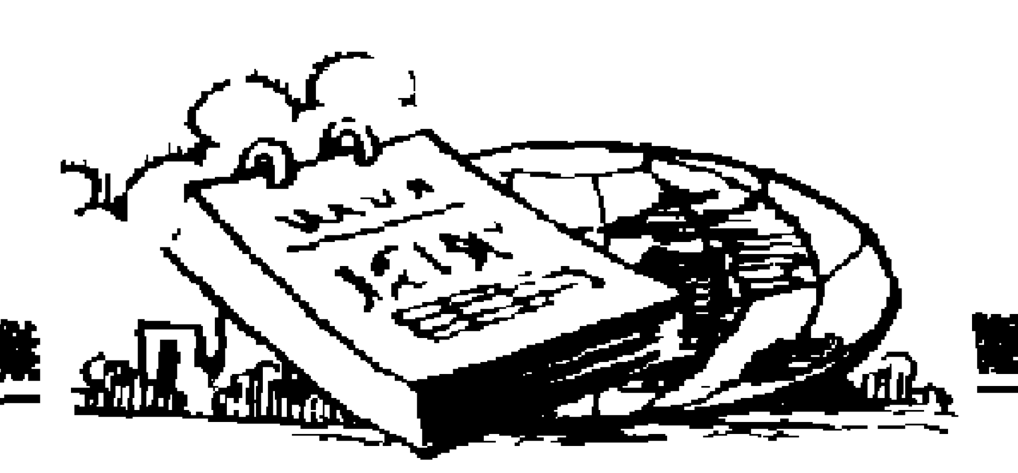
ومن ذهب إلى جمعية خيرية مثلا ترأسها زوجة رجل ذو نفوذ . . وتبرع لها بمبلغ كبير من المال ليقضى له زوجها مصلحة دنيوية فلا ثواب له . . لأنه اختار مصلحة دنيوية ولم يفعل ذلك عن حب لله . . ومن صلى ليقال مصل . . أو حج ليقال حاج فلا ثواب له . . لأنه قصد الشهرة فى الدنيا ولم يكن فى قلبه حب الله . . وفى ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله . . ومن كانت هجرته إلى دنيا يريدها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما أراد) .

إذن فالحرية الكاملة فى أن يستخدم الإنسان عقله .. فى توجيه الطاقة المخلوقة من الله إلى الطاعة أو المعصية .. شرط أساسى للحساب فى الآخرة .. والإكراه على الإثم حتى الزنا مرفوض وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(الآية ٣٣ من سورة النور)

وهكذا نرى انه حتى فى الكبائر مثل الكفر والزنا .. إذا حدث إكراه فلا عقاب .. ولابد أن يتم الفعل بتوجيه العقل بالإرادة الحرة للطاقة المخلوقة لنا من الله .. إما إلى الخير وإما إلى الشر .. ولذلك اقتضت عدالة الحق سبحانه وتعالى أن يرفع التكليف عن المجنون الذى لا يستطيع عقله بإرادته الحرة أن يوجه طاقته إلى الخير أو الشر .. لأن فاقد العقل لا يستطيع تمييزا بين الضار والنافع .. وكذلك الطفل الذى لم يبلغ الحلم .. لأن عقله لم ينضج حتى يصل به إلى مجال الاختيار السليم .



ولكن بعض الناس يتساءلون . . كيف أن الحق جل جلاله أعطى الإنسان الحرية المطلقة فى مجال التكليف . . فى أن يفعل أو لا يفعل . . وجعل الحساب على النية الصادقة للفعل وليس التظاهرية . . مصداقا لقوله تبارك وتعالى عن الحساب يوم القيامة :

﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾

(الآيتان ٩ و ١٠ من سورة الطارق)

إذا كان هذا هو الموقف . . وإذا كان الإنسان قد أعطى الاختيار فى المنهج . . فكيف يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ (الآية ١٥ من سورة الرعد)

نقول إن هذه الآية مقصود بها الدنيا والآخرة . . فالله سبحانه وتعالى يسجد له من فى السموات والأرض . . طوعا . . أى باختيارهم فى الحياة الدنيا . . فكل ما فى الكون ما عدا الإنس والجان . . يسجد لله طوعا لأنهم اختاروا القهر . . وهم مقهورون باختيارهم . . أما الإنس والجان فيسجد من اختار منهم طوعا فى الحياة الدنيا.أما بعد الحياة الدنيا فلا اختيار . . ينتهى الاختيار بالنسبة للانس والجان ويصبحوا مقهورين . .

من يشاء . . ولو ان الملك يحصل عليه البشر بقدراتهم الذاتية لاحتفظوا به ولما نزع منهم . . ولكن قوله تبارك وتعالى :

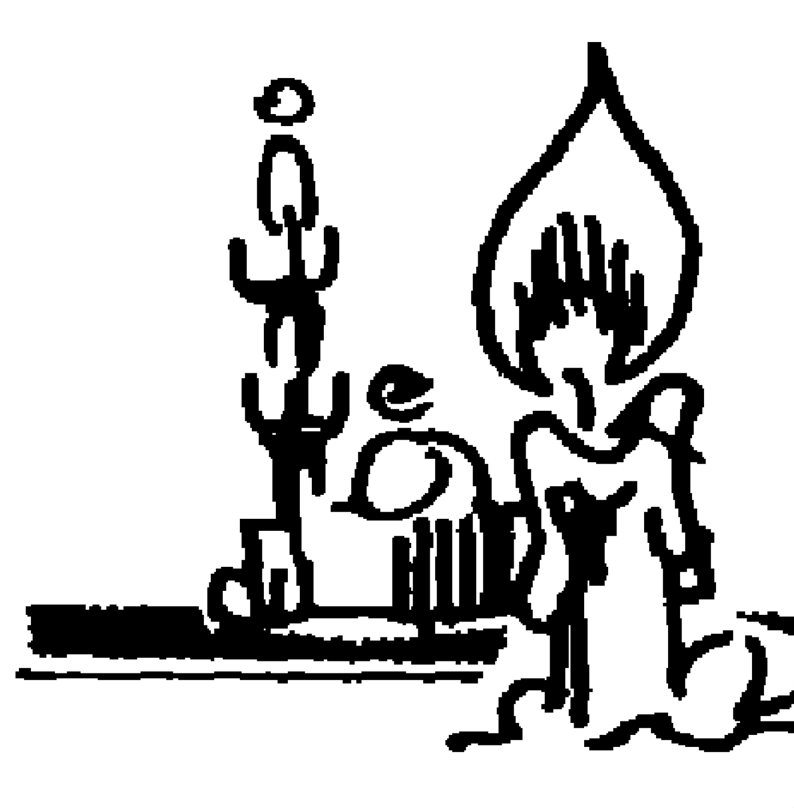
﴿ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

(الآية ٢٦ من سورة آل عمران)

. . دليل على ان الملك ينتزع انتزاعا من البشر . . وان أحدا لا يرغب أبدا فى أن يتركه باختياره . . بل لابد أن ينتزع منه رغما عنه .

ولذلك تجد ذلك الذى على قمة السلطة . . تطاع أوامره ويخضع الكل له . . فى لحظة واحدة يأتى أمر الله . . فإذا بأقرب الناس اليه قد تخلوا عنه . . ويصبح خائفا يحاول أن ينجو بحياته بأى ثمن . . وأن يجد ملجأ يختبىء فيه . .

زوال المُلك عنه ليس بقدراته . . ولكنه بقدرات الله سبحانه وتعالى . . والمسألة كلها مسألة استخلاف فى الأرض . . فلا يعتقد أحد انه يأخذ الملك بذاته وقدراته . . ولا انه يحتفظ به بذاته وقدراته . . بل الله تبارك وتعالى يعطى الملك لمن يشاء ويمنعه عمن يشاء .



على أننا لابد أن نتنبه إلى لفتة هامة .. أراد الحق سبحانه وتعالى أن يلفتنا بها إلى أن الاختيار الممنوح لنا فى الدنيا .. هو بقدرة الله ومشيئته .. ولو أراد أن يسلبه منا لفعل .. لأنه ممنوح منه وبمشيئته .. ولذلك يأتى الحق سبحانه وتعالى إلى أبى لهب .. عم رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وأحد أئمة الكفر .. الذين حاربوا دين الله حربا شرسة ليقول فيه :

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾

(سورة المسد)

يأتى الحق سبحانه وتعالى .. فى قرآن منزل على رسوله صلى الله عليه وسلم .. لا يتغير ولا يتبدل .. متعبدا بتلاوته إلى يوم القيامة .. ويعلن أن أبا لهب سيموت كافرا ويدخل النار .. وماذا كان يمكن أن يحدث .. لو أن أبا لهب جمع الناس .. وقال إن محمدا قد قال فى قرآن يقول أنه منزل عليه من الله .. أننى سأموت كافرا وسأدخل النار .. وهأنذا أقول أمامكم .. أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله .. لتعلموا أنه لا شىء ينزل على محمد من السماء .. كان يمكن أن يقولها نفاقا

أو رياء .. ليهدم بها قضية الدين كله .

ولكن الله سبحانه وتعلى تحدى أبا لهب فى أمر اختيارى .. ومع ذلك لم يأت إلى عقل أبى لهب أن يستخدم هذا التحدى فى هدم الدين الذى كان يكن له أشد العداء .. بل إن كثيرا من أئمة كفار قريش كأبى سفيان وعكرمة بن أبى جهل .. وخالد بن الوليد .. وعمرو بن العاص .. وغيرهم الذين حاربوا الإسلام بضراوة .. آمنوا بعد ذلك وحسن إسلامهم .. إلا أبا جهل فإنه ظل على كفره حتى مات .

الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا بهذا .. إلى أنه جل جلاله هوالذى أعطى الإنسان الاختيار .. وأنه إذا شاء سلبه منه فلا يملك اختيارا .. ولذلك جاء إلى جزء من الاختيار عند أبى لهب وسلبه منه .. ثم وضع فى يده قضية يهدم بها دين الله ولكنه لم يستطع ولم يخطر ذلك على باله .. لأنه فى هذه النقطة بالذات .. لم يكن يملك اختيارا ..

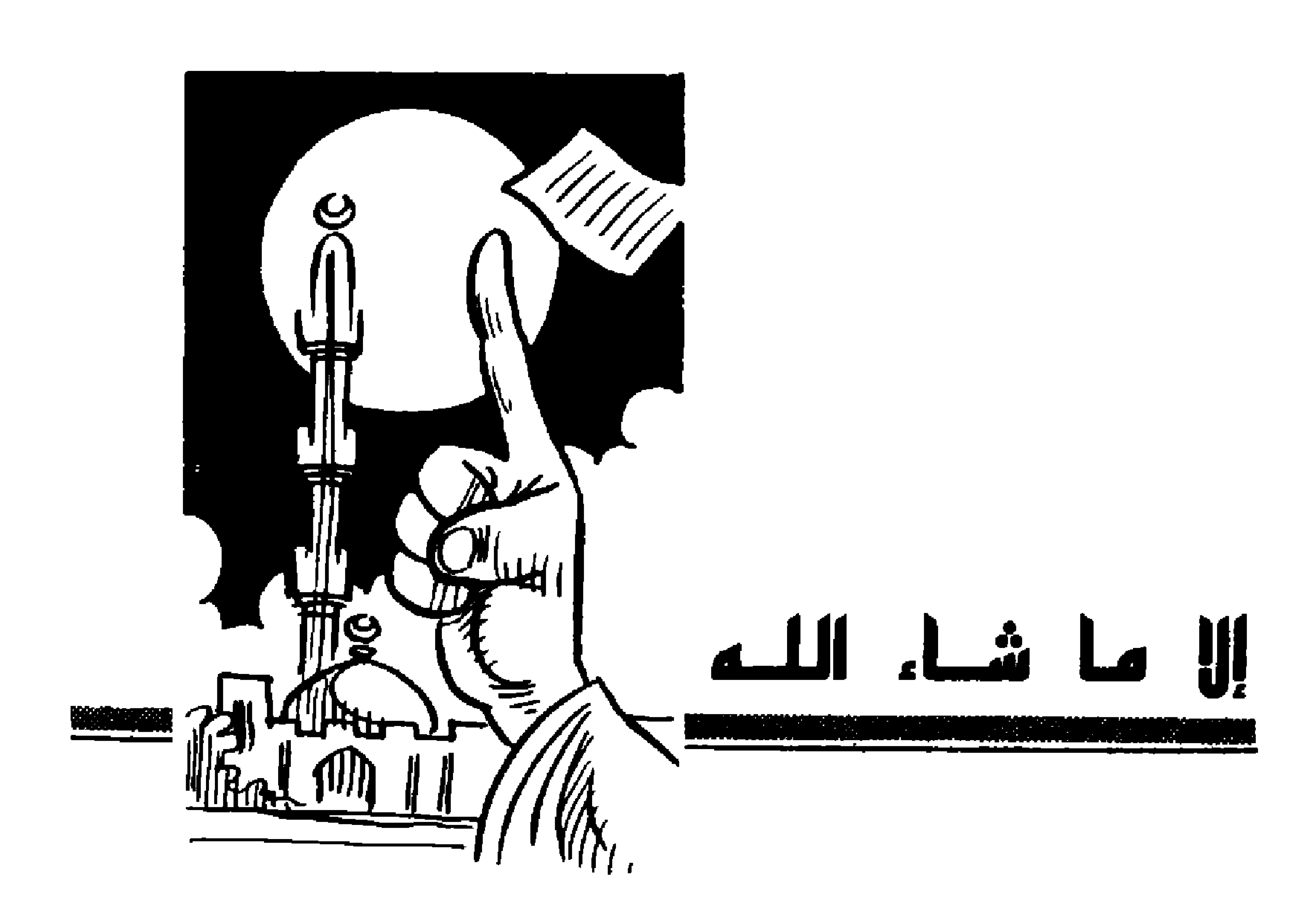
وهكذا نرى بالدليل القاطع أن الله هو الذى أعطى الإنسان حرية الاختيار فى التكليف .. وأنه إن شاء سلبها منه جزئيا أو كليا .

إلى هنا نكون قد وصلنا إلى أن الفعل من الله سبحانه وتعالى .. لا يتم إلا بإذنه ولا اختيار فيه .. لأنه جل جلاله

يملك وحده كل عناصر الفعل . . وأن كل اختيار الإنسان فى توجيه الطاقة المخلوقة له من الله للخير أو للشر . . وإن الله سبحانه وتعالى أعطى للإنسان الحرية الكاملة فى نطاق التكليف بافعل ولا تفعل . . بحيث يستطيع أن يفعل ما قال له الله لا تفعل . . وألا يفعل ما قال له الله افعل . . وفى نطاق هذا يتم الحساب . . وإنه حتى حرية الاختيار هذه خاضعة لمشيئة الله سبحانه وتعالى . . يستطيع أن يسلبها كليا أو فى جزء من أجزائها متى شاء . . لنعرف أنها من الله وليست من الإنسان . . الذى شاء له الحق سبحانه وتعالى أن يكون مختارا .



الفصل الخامس



إلا ما شاء الله

إذا كنا قد وصلنا إلى أن الحرية الموهوبة من الله للإنسان . . هى أن يوجه الطاقة المخلوقة من الله فى جسده . . إما للطاعة وإما للمعصية . . وقلنا ان الله سبحانه وتعالى قد أعطى للإنسان الحرية الكاملة فى أن يوجه الطاقة إلى ما يشاء . . حتى يكون الحساب عدلا . . نجد أن بعض الناس يقف أمام الآية الكريمة فى قوله تعالى :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

(الآية ٤ من سورة إبراهيم)

وقوله تبارك وتعالى :

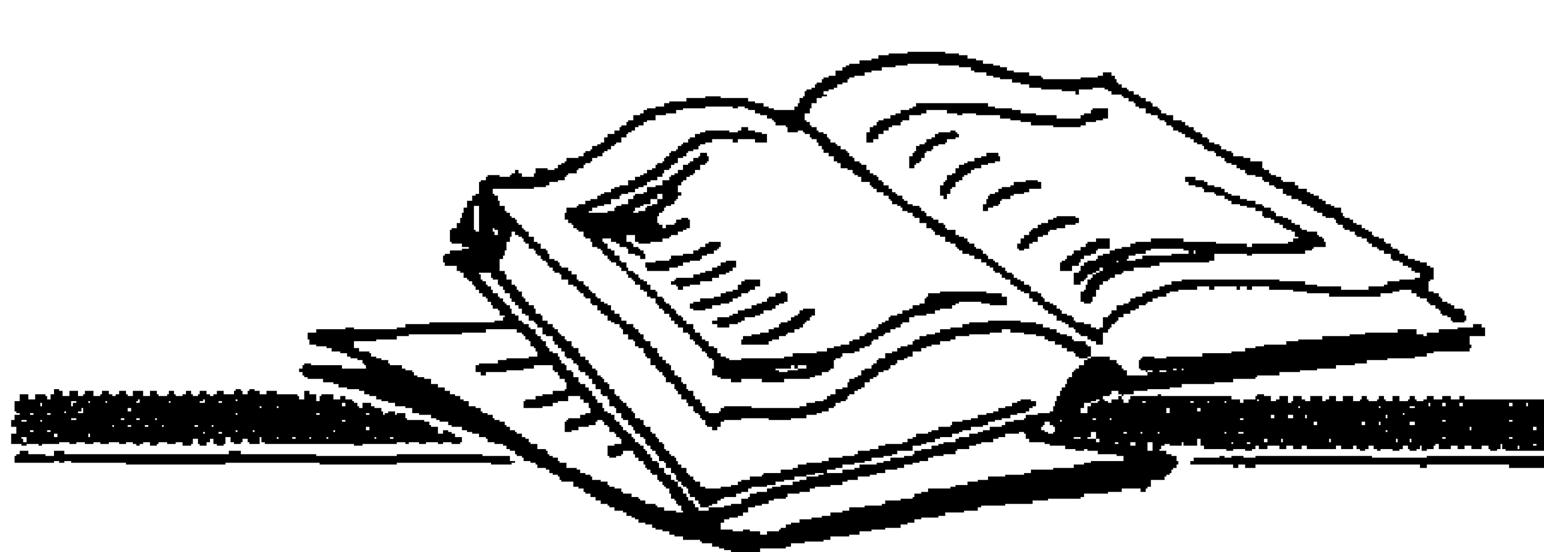
﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾

(الآية ٣١ من سورة المدثر)

وهناك آيات كثيرة فى القرآن الكريم . . سنتعرض لبعضها فى هذا الفصل . . وكلها تؤكد لنا أن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء . . فكيف إذا كانت هذه هى الحقيقة . . فكيف إذا كانت مشيئة الله جل جلاله هى التى تهدى ، وهى التى تضل فكيف إذن يكون الحساب عدلا ؟ . . وهل يملك أحدنا من أمره شيئا أمام مشيئة الله سبحانه وتعالى ؟

نقول بداية إن الله سبحانه وتعالى .. له طلاقة القدرة فى كونه .. فكل قوانين هذا الكون وأسبابه هى من خلق الله جل جلاله .. ولا يمكن أن يتحكم المخلوق فى إرادة خالقه .. ولذلك فالحق سبحانه وتعالى .. وهو الذى خلق قوانين هذا الكون .. خرقها لأنبيائه .. فجعل النار وقانونها الإحراق بردا وسلاما على إبراهيم عليه السلام .. وجعل البحر وقانونه الاستطراق ينشق لموسى عليه السلام .. وأعطى لعيسى عليه السلام بإذنه إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى .. كل هذه معجزات أعطاها الله لأنبيائه لثبات بلاغهم عن الله .. ولكن قدرته عز وجل لم تشأ أن تبقى طلاقة القدرة للأنبياء فقط .. بل إن طلاقة القدرة نراها فى كل يوم .. ونحن نشهد ضعيفا ينتصر على قوى .. أو مظلوما ينتصر على جبار .. أو رجلا بلا نفوذ ينتصر على أصحاب النفوذ .



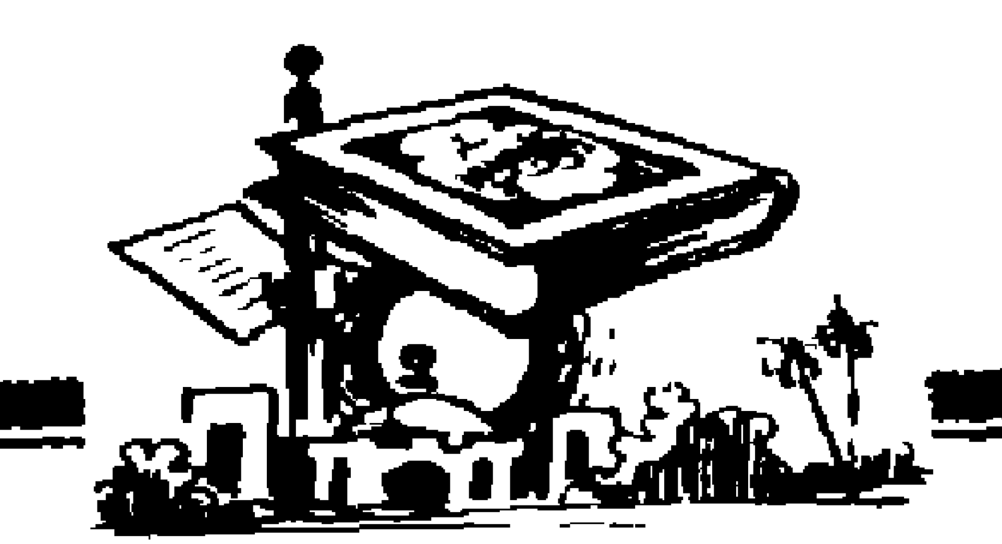


ولو أن كلا منا استعرض تاريخ حياته . . لوجد أنه فى يوم من الأيام . . صاح من أعماقه ربنا كبير . . أو ربنا موجود . . أو ربك يمهل ولا يهمل . . وكل هذا لا ننطق به إلا ونحن نشهد حدثا تجلت فيه طلاقة القدرة الإلهية . . فالأسباب لا تجعلنا

نقول ذلك لأنها شيء عادى ، فانتصار القوى على الضعيف لا يجعلنا نقول ربنا موجود . . لأن الذى حدث كان بقانون الأسباب الذى نراه كل يوم . . انتصار الظالم على المظلوم . .

لا يجعلنا نقول ربك يمهل ولا يهمل . . لأنه بقانون الأسباب الذى نراه أمامنا كل يوم ينتصر الظالم على المظلوم . . ولكننا لا نرى طلاقة القدرة إلا فى ظلم الناس . . ذلك أن الحساب فى كل شيء مؤجل إلى يوم القيامة . . ماعدا ظلم الناس . . فلابد أن يقتص الله جل جلاله من الظالم فى الحياة الدنيا . . حتى يعتدل ميزان الحياة . . ويعرف الناس أن الظلم له قصاص دنيوى . . بجانب قصاص الآخرة .

ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اتقوا دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب يرفعها الله فوق الغمام ويقول وعزتى وجلالى لأنصرنك ولو بعد حين) . .



ولكن عدل الله شاء أن يعطى الإنسان حرية الاختيار فى المنهج .. فكيف يقال إنه يهدى من يشاء ويضل من يشاء مع هذه الحرية ؟ .. قبل أن نتحدث عن هذه النقطة .. لابد أن نعرف ما هو معنى الهدى ؟ .. الهدى هو الدلالة على الطريق .. فأنت حين يسألك أى شخص عن طريق معين تقول له اتجه إلى المكان الفلانى .. ثم انحرف يمينا أو يسارا فتجد الطريق .. فكأنك هديته إليه .. وفى نفس الوقت يستخدم الهدى على أساس المعونة على الطريق .. كأن يسألك إنسان عن طريق يوصل إلى مكان معين .. فتقول له هناك طريقان فى جهتى كذا وكذا .. وأنا أنصحك بأخذ الطريق الثانى .. لأن الطريق الأول محفوف بالأخطار .. وفيه عدد من قطاع الطرق .. ولذلك فإنه لن يكون آمنا .. أما الطريق الآخر فهو مضاء وآمن .. فكأنك لم تدله على الطريق فقط .. ولكنك أعنته عليه .

الهداية الأولى .. وهى الدلالة على الطريق هى من الله لكل عباده .. فالرسل جاءوا ليهدوا البشر إلى الطريق المستقيم طريق المنهج .. وبلاغ الرسل الذى جاءوا به لمن أرسلوا إليهم .. هو أن يدلوهم على طريق الهداية لمنهج الله .. ويبينوا لهم الطريق

الذى يرضى الله . . والطريق الذى يغضبه . . وبهذه الدلالة تتم الهداية بالنسبة للخلق جميعا . . وبعد الرسالة التى جاء بها خاتم المرسلين . . سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . . كلفت أمة محمد بأن تقوم بهداية الناس إلى طريق الإسلام . . أى تبلغهم وتبين لهم ما جاء به الإسلام . . وإذا لم نفعل ذلك نحاسب عليه .

ولنفرض أن رجلا يقيم وحده فى كهف بعيدا عن الدنيا كلها . . لم يبلغه أحد منهج السماء فإنه لا يحاسب يوم القيامة . . ولكن البلاغ برسالة الله قائم حتى الآن . . بدليل أن المستشرقين يتفننون فى الطعن فى الدين الإسلامى . . فكأنهم بلغوا وعرفوا أن هناك دينا ومنهجا لله اسمه الإسلام . . ولكن هناك من عرفوا أن هناك منهجا ودينا إسلاميا . . ولكنهم لم يهتموا أن يعرفوا عن هذا الدين شيئا أو يقرأوا عنه . . أو يستمعوا لمن يبلغهم بأحكام هذا الدين . . هؤلاء يحاسبون . . لأن الإنسان فى كل أمور حياته العادية عندما يسمع عن شىء يهمه فإنه يسأل ويقرأ عن هذا الشىء . . فإذا كان يريد أن يشغل وظيفة معينة . . أعد نفسه لها الاعداد الكامل . . فدخل الكلية التى تؤهله لهذه الوظيفة . . وبدأ يقرأ ويدرس دراسات خارجية أيضا تزيده علما بوظيفته . . وإذا أراد الإنسان أن يشترى شيئا . . درس كل

الأنواع الموجودة منه فى السوق . . وعرف أسعارها ومميزاتها . . ليشترى أرخصها وأحسنها .

وحتى فى المسائل الترفيهية الكمالية . . كالسياحة مثلا . . فإن الإنسان إذا أراد أن يذهب إلى بلد معين . . قرأ عنه ليعرف ما يمكن أن يشاهده . . وأى الأماكن ينزل فيها إلى غير ذلك . . فإذا كان هذا هو اهتمامنا بشئون الحياة العادية . . أما كان يجب أن يكون اهتمامنا بأهم شئون الحياة وهو دين الله وعبادته أكبر وأكثر ؟ .

كان هذا هو الذى يجب أن يحدث . . ولكن بعضنا يهتم بأتفه شئون الحياة . . فإذا سمع عن دين الله الذى يهدى إلى صراطه المستقيم . . ويؤدى بالإنسان إلى نعيم مقيم أو عذاب مقيم . . لم يلتفت إلى ذلك . . ولهذا يحاسب .

إذن الهدى هو الدلالة على الطريق إلى الله . . ليعرف الناس دين الله . . وليعبدوه ويطيعوه فيما أمر . . ولكن هناك دلالة أخرى ؟ هى دلالة المعونة ؟ وهذه خص بها الله سبحانه وتعالى المؤمنين من عباده . . فإن دخل إنسان فى الإيمان ، فإن الله يعينه عليه ويزيده هدى . . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾

(الآية ١٧ من سورة محمد)

ولذلك إذا قرأت قول الحق سبحانه وتعالى إلى نبيه صلى الله

عليه وسلم :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾
(الآية ٥٦ من سورة القصص)

ثم قرأت قوله جل جلاله :

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الآية ٥٢ من سورة الشورى)

نجد أن الحق سبحانه وتعالى قد أثبت الهداية لرسوله صلى الله عليه وسلم .. ونفاها عنه . فكيف يمكن أن يهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صراط مستقيم .. وألا يهدى من أحب .. نقول إنك لم تفهم معانى القرآن الكريم .. فالهداية التى أثبتها الحق جل جلاله لرسوله صلى الله عليه وسلم هى هداية الدلالة .. فى أن الرسول عليه الصلاة والسلام .. دل الناس على طريق الإيمان .. وعلى طريق الطاعة .. وبين لهم ما يغضب الله ويأتى بعذابه .. أما الدلالة التى نفاها الحق سبحانه وتعالى عن رسوله عليه الصلاة والسلام .. فهى هداية المعونة فى أن الله سبحانه وتعالى يزيد كل من سار فى طريق الهداية هدى .. ويعينه عليه ، ويحببه فى الإيمان .. ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى عن ذاته العلية :

﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ (الآية ٧ من سورة الحجرات)

مراد فعلى .. ومراد شرعى

والله سبحانه وتعالى له مراد فعلى فى كونه . . وهذا لا يستطيع أن يخالفه أحد . . لأنه نافذ . . وله جل جلاله مراد شرعى فى كونه . . أى فيما شرع للناس من الدين . . وهذا المراد الشرعى للحق سبحانه وتعالى . . هو الذى أعطى فيه حرية الاختيار للإنسان فى أن يطيع أو يعصى . . أعطاه حرية الطاعة وحرية المخالفة . . هذا المراد الشرعى فى إفعل ولا تفعل . . هو الذى يخالفه عباد الله . . أما المراد الفعلى فى الأفعال التى تتم فى كون الله . . فلا يمكن لأحد أن يخالفها . . ولذلك إذا قرأت قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾

(الآية ١٧ من سورة فصلت)

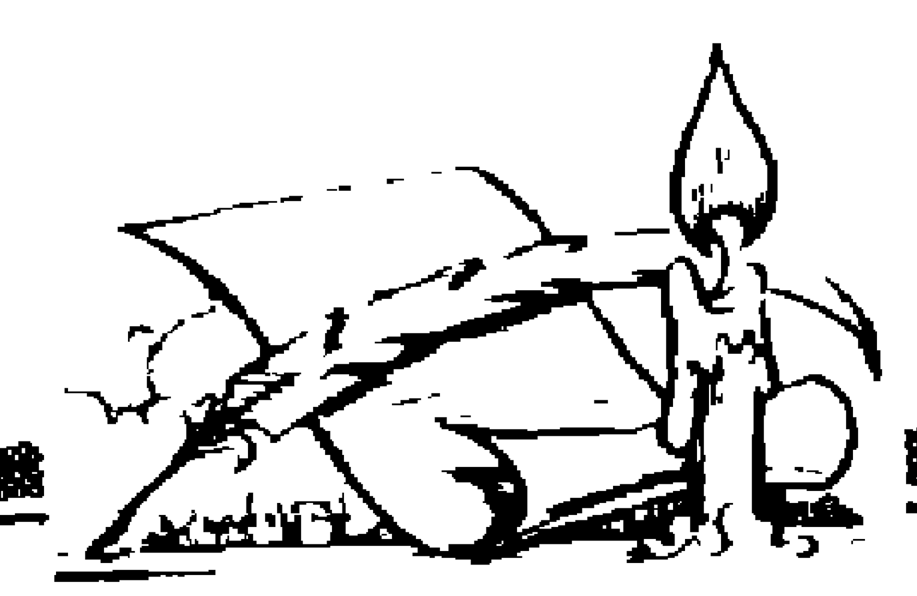
أى أن الله سبحانه وتعالى . . دل ثمود على طريق الهداية وبينه لهم . . ولكنهم أحبوا المعصية فخالفوا الطاعة . . وكل بشر يستطيع ذلك من خلال مشيئة الله سبحانه وتعالى . . بأن خلقه مختارا فى تطبيق شرع الله . . أو اتباع طريق المعصية .

الله سبحانه وتعالى رحمة بنا . . بين لنا ما سيحدث إذا اتبعنا طريق الهداية . . وما سيحدث إذا اتبعنا طريق الضلال . . ومن رحمته جل جلاله أنه جعل مفتاح الجنة ومفتاح النار فى أيدينا . .

فمن أراد مشى فى طريق الجنة بالإيمان بالله سبحانه وتعالى . .
ومن أراد مشى فى طريق النار بمعصية الله .

الله تبارك وتعالى بَيِنَّ لنا ما يفعله بالنسبة لأولئك الذين يمشون فى طريق الإيمان . . وما يفعله لهؤلاء الذين يمشون فى طريق المعصية والكفر . . فكل من مشى فى طريق الإيمان . . وحدث له ما وعده الله به . . فهذه هى مشيئة الله تحققت فيه . . وكل من مشى فى طريق المعصية والكفر . . أصابه ما أوعده الله ، وتلك مشيئة الله تحققت فيه . . لا المؤمن يخرج عن المشيئة . . ولا العاصى يخرج عن المشيئة . . ويكون الحساب فى كل من الحالتين عدلا . . لأن الإنسان اختار بإرادته الحرة طريق الإيمان أو طريق المعصية . . ولأن الله جل جلاله بين له أولا ما سيحدث له . . إن مشى فى طريق الإيمان . . وما سيقع عليه إن مشى فى طريق المعصية .

لا عقوبة إلا بنص



والله سبحانه وتعالى لا يعاقب على معصية .. إلا بعد أن يحرمها أولا .. ومن ذلك أخذت المجتمعات المبدأ القانونى .. أنه لا تجريم إلا بنص .. فلابد أن يأتى النص أولا ليصبح الفعل جريمة .. ولذلك بعد أن نزلت الآيات فيها حرمه الله .. أصبح كل من يرتكب هذا الحرام مذنبا يستحق العقاب .. والله سبحانه وتعالى بين لنا ماذا سيحدث للذين يتبعون طريق الإيمان .. فقال جل جلاله :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾

(الآية ١٧ من سورة محمد)

وقوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾

(الآية ٧ من سورة الحجرات)

وقال عز وجل :

﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾

(الآية ١٦٠ من سورة الأنعام)

وقوله تبارك وتعالى :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ

﴿ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

(الآية ٢٦١ من سورة البقرة)

وآيات أخرى كثيرة تبين ماذا سيحدث من خير للإنسان إذا سار فى طريق الإيمان . . بل بين الحق سبحانه وتعالى . . كيف سيساعد الإنسان المؤمن . . ويجزيه ويعينه . . كل هذا فى الدنيا . . ونحن لا نتحدث فى هذا الكتاب عن الآخرة فلها كتاب آخر . . فقال الحق سبحانه وتعالى فى حديث قدسى :

« أناعند ظن عبدى بى ، وأنا معه حين يذكرنى . فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه، وإن تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا ، وإن تقرب إلى ذراعا ، تقربت إليه باعا . وإن أتانى يمشى أتيته هرولة » .

كل هذه النعم من الحق تبارك وتعالى . . فى الإعانة على طريق الإيمان . . ذكرها الله جل جلاله وبينها وحدد الطريق . . فإذا سرنا فى طريق الإيمان . . جاءتنا كل هذه النعم . . المهم أن نبدأ نحن الخطوة الأولى . . ثم بعد ذلك يأتى العون والمدد من الله سبحانه وتعالى . . فإذا خطونا خطوة الإيمان الأولى . . ومشينا فى طريق الإيمان . . أخذنا كل هذه النعم بمشيئة الله . . وإذا سرنا فى طريق الكفر والبعد عن الإيمان والعياذ بالله . . ماذا يحدث لنا ؟ . . الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾

(الآية ١١٩ من سورة النساء)

ويقول جل جلاله :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾

(الآية ١٧٥ من سورة الأعراف)

وقوله تعالى :

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾

(الآية ٣٦ من سورة الزخرف)

وقوله عز وجل :

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

(الاية ٢٧ من سورة الأعراف)

وقوله سبحانه :

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴾ ﴿ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾

(الآيتان ٢٢١ و ٢٢٢ من سورة الشعراء)

وآيات أخرى كثيرة فى القرآن الكريم كلها تبين لنا أن الله سبحانه وتعالى .. إذا لم يؤمن الإنسان تخلى عنه وتركه للشياطين .. يزينون له الباطل ويقودونه إلى طريق المعصية ..

فيزداد إثما وعصيانا ويحق عليه العقاب . . ويختم الله على قلبه فلا يخرج منه الكفر أبدا . . وقد يصبح هو نفسه من شياطين الإنس والعياذ بالله . . إلى آخر ما أعده الله سبحانه وتعالى للكافرين فى طريق الضلال . .

فأنت إذا آمنت . . دخلت فى مشيئة الإيمان . . وأعطاك الله كل ماوعد المؤمنين . . وإذا دخلت فى مشيئة الكفر . . أصبحت مع الشياطين . . وفى أى من الحالتين لا تخرج عن المشيئة . . أو لا تخرج عما شاء الله بالنسبة لطريق الإيمان أو طريق الكفر .

الذين لا يحبهم الله

ثم يبين الحق سبحانه وتعالى لنا .. الذين لا يدخلهم فى مشيئة هديه .. فيقول الله جل جلاله :

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

(الآية ٢٦٤ من سورة البقرة)

ويقول تبارك وتعالى :

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(الآية ٢٥٨ من سورة البقرة)

وقوله سبحانه :

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾

(الآية ٢٤ من سورة التوبة)

وقوله عز وجل :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾

(الآية ٣ من سورةالزمر)

وقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾

(الآية ٢٨ من سورة غافر)

وهكذا بين الله سبحانه وتعالى لنا عمن يمنع هدايته .. فإذا كنت كافرا أو ظالما .. أو فاسقا ، أو كاذبا كفاراً أو مسرفا على

نفسك كذابا . . فإن الله تبارك وتعالى لا يهديك . . والهداية هنا بمعنى المعونة على الإيمان وعلى زيادة الإيمان . . والحق جل جلاله بين لنا ذلك حتى نبتعد عن هذه الأشياء ونمتنع عنها . . فندخل فى مشيئة الله فى الهداية .

وفى كلتا الحالتين . . أنت تدخل فى مشيئةالله ولا تخرج عنها . . إن اخترت البعد عن الكفر والظلم والفسوق . . فأنت تدخل فى مشيئة هدى الله . . وإن أخذت طريق الكفر والظلم والفسوق . . فأنت تدخل أيضا فى مشيئة الله بعدم هدايتك . . إذن فى كلتا الحالتين أنت لم تخرج عن المشيئة . . وفى كلتا الحالتين فلن يحدث لك إلا ما شاء الله لك . . فلا خروج على مشيئة الله سبحانه وتعالى فى أى طريق اتخذته .

تلك هى الحقيقة التى يجب أن تعلمها . . حتى لا تظن أنك إذا آمنت أو إذا كفرت . . خرجت بإيمانك أو بكفرك عن المشيئة . . كل ما حدث أنك أطعت مراد الله فى شرعه . . أو خالفت مراد الله فى شرعه . . أى خالفت المراد الشرعى لله . . ولكنك لم تخرج عن المشيئة ولن تخرج عليها .

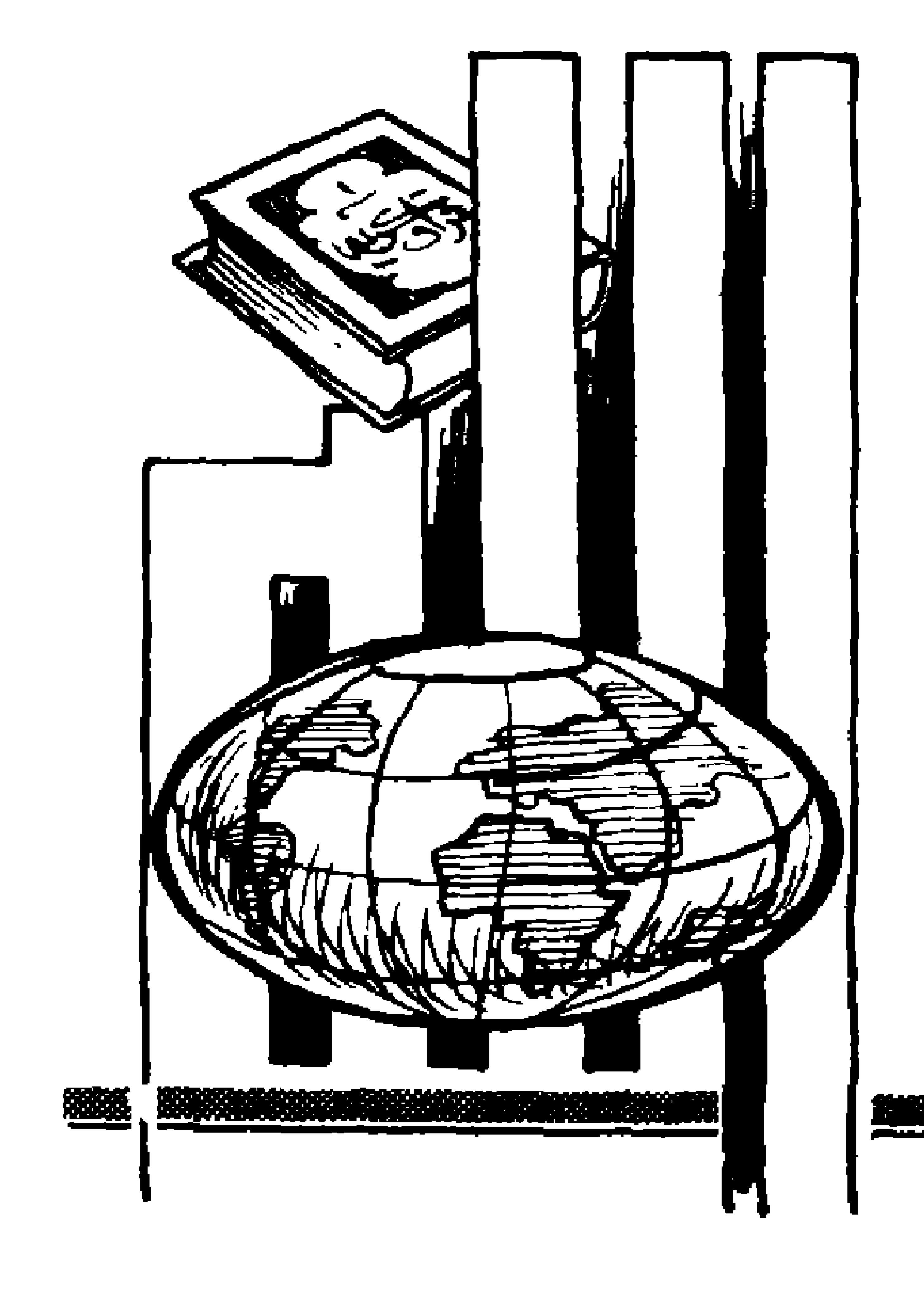
نكون بذلك وصلنا إلى أن كل ما يحدث هو من مشيئة الله سبحانه وتعالى . . وأن الله جل جلاله أوجد فى الكون هداية دلالة وهذه للناس جميعا . . المؤمن وغير المؤمن . . وهداية معونة

وهذه للمؤمنين وحدهم يزيدهم الله بها هدى . . وأن الله قد بين ما شاءه لمن يؤمن به . . وبين لنا ما شاءه لمن يكفر به والعياذ بالله . . وأوضح كيف يزيد المؤمن إيمانا وهدى . . وكيف يترك الكافر للشياطين لتزين له المعصية وتغريه على عدم الطاعة .

ثم يختم على قلبه فلا يخرج الكفر منه .

وأنت إن اخترت الإيمان أو عدم الإيمان . . فإنه سيحدث لك ما شاءه الله . . إما بزيادة الهدى . . وإما باتباع الشيطان . . ولكنك فى كلتا الحالتين داخل فى المشيئة خاضع لها . . إذا أطعت مراد الله شرعا فى كونه ، فأنت داخل فى المشيئة . . وإن خالفت وعصيت مراد الله فى كونه . . فأنت أيضا داخل فى المشيئة .

الفصل السادس



الله محيط بكل شيء

تحدثنا عن المؤمنين والكفار .. وكيف أن هؤلاء وهؤلاء لا يخرجون من المشيئة .. ولكنهم يطيعون أو يخالفون مراد شرع الله فى كونه .. ولكن الجدل من غير المؤمنين يبقى عدة نقاط لابد أن نرد عليها .. ذلك أن الإنسان أكثر شىء جدلا .. وأن الإنسان يحاول أن يجد منفذا ليهرب به من عذاب الله .. ويدعى أن هذا العذاب من مشيئةالله .. وليس له اختيار فيه .

ونحن نقول نعم هو مشيئة الله سبحانه وتعالى .. ولكنك أنت الذى تختار الطريق إلى مشيئة الله فتدخل فى رحمته ونعيمه .. وأنت الذى تختار الطريق إلى مشيئة الله لتدخل فى غضبه وعذابه .. وفى يدك أنت المفتاح .. فأنت تؤمن .. فيزيدك الله إيمانا .. وأنت تقوم الليل فيزيدك الله مقاما .. وأنت تقرأ القرآن فيزيدك الله ثوابا .. وأنت تفعل الخير فيزيدك الله مقاما عاليا .. وأنت تعرض عن هذا كله .. فيزيدك الله بعدا .. عن طاعته ويتركك للشيطان .

وهنا نأتى إلى الآية الكريمة التى يثير بعض الناس حولها جدلا .. وهى قول الحق جل جلاله :

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (الآية ١٧٩ من سورة الأعراف)

ويقول هؤلاء الذين يريدون أن يجادلوا بالباطل .. مادام الحق سبحانه وتعالى قد خلق هؤلاء لجهنم .. ومادام جل جلاله قد جعل لهم قلوبا لاتفقه .. وأعينا لا تبصر .. وآذانا لا تسمع .. فماذنبهم حتى يعذبوا فى النار ؟.

نقول إنكم لم تفهموا معنى الآية الكريمة .. فالله سبحانه وتعالى قد خلق لهؤلاء الناس قلوبا تفقه ولكن هم الذين لا يفقهون بها .. وخلق لهم أعينا ترى .. ولكن هم الذين لا يرون بها .. وخلق لهم آذانا تسمع .. ولكن هم الذين لا يسمعون بها .

فإذا جئنا إلى قلوبهم مثلا .. والقلب هو المكان الذى تستق فيه العقيدة .. بعد أن تناقش بالعقل مناقشة كاملة .. نج أنهم يرفضون المنطق العقلى السليم .. فمثلا يقولون :

﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الآية ٣٢ من سورة الأنفال

أيمكن أن يكون هذا قول من لهم قلوب تفقه ؟ .. ألم يك المنطق السليم يجعلهم يقولون إن كان هذا هو الحق من عن الله .. فاهدنا يا رب إليه .. ولكن فى هذه النقطة بالذا يتخذون المنطق الأعوج .. ويفضلون العذاب على الإيما

بالحق . . مع أنهم فى أمور دنياهم مثلا وفى تجارتهم يتخذون قرارات سليمة لزيادة أموالهم وغير ذلك . . فهم يعدون العدة للقوافل بشكل جيد . . ويتعاملون بالدرهم والدينار بشكل جيد . . لأن الذين قالوا ذلك صناديد قريش وأغنى أغنياء العرب . . فإذا جاء أمر الدين والحق . . ابتعدوا عن الفهم السليم والمنطق السليم . . وأخذوا يتحدثون كمن ليس لهم قلوب تفقه أو تعرف . . فالله سبحانه وتعالى لم يخلقهم بقلوب لا تفقه . . ولكنه خلقهم بقلوب سليمة . . وهم الذين رفضوا الفهم . . ورفضوا استخدام عقولهم . . بل إنهم من غفلتهم . . يعرفون أن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم هى الحق . . ولكنهم يطلبون العذاب بدلا من الإيمان بها .

وإذا جئنا إلى أعينهم مثلا . . نجد أن الله سبحانه وتعالى جعل أعينهم فيها قدرة الإبصار . . ولكنهم لا يستخدمون هذه القدرة . . فموسى على رسولنا وعليه أفضل السلام . . جاء لآل فرعون بآيات كثيرة رأوها رؤية العين . . وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾

(الآية ١٣٣ من سورة الأعراف)

إن كل هذه الآيات التى أرسلها الحق سبحانه وتعالى إلى آل فرعون . . كانت آيات ترى بالعين دون جهد . . فالطوفان الذى أغرق الأرض كان ظاهرا للجميع . . والجراد الذى أكل الزرع رأوه جميعا . . وكذلك القمل . . والضفادع التى كانوا يجدونها فى طعامهم . . والدم الذى كان يتحول إليه الماء . . كلما أمسكوه ليشربوا . . أليست كل هذه آيات أمكنهم جميعا أن يبصروها ؟ . . نعم . . ولكنهم مع أنهم أبصروها لم يؤمنوا . . فكأن أعينهم لا تبصر . . لأن الهدف من الأبصار هو أن تعرف الشىء . . وتتحقق منه وتصدق ما تراه .

ولكن هؤلاء أبصروا ولم يصدقوا فتساووا مع الذين

لا يبصرون . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم . . حين طلب منه الكفار أن ينشق القمر . . كمعجزة تؤكد لهم صدق رسول الله عليه الصلاة والسلام من ربه . . فلما استجاب الله لرسوله صلى الله عليه وسلم . . وانشق القمر . . فهل آمنوا وصدقوا مارأوه ؟ . . لا . . قالوا سحر محمد أعيننا . . فكأنهم تساووا مع الذين لم يروا . . فى أنهم شاهدوا وكذبوا .

أما بالنسبة لآذانهم التى لا تسمع . . ألم يقل كفار قريش :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾

(الآية ٢٦ من سورة فصلت)

فكأن آلة السمع عندهم سليمة تسمع . . ولكنهم هم الذين يعطلون استخدامها فى سماع كلام الله . . ويطلبون من الناس ألا يسمعوا . . مع أنه كان المفروض أن يسمعوا ويفهموا . ألم يقولوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (شاعر وكاهن ومجنون) . . أكان هذا ينطبق مع المنطق السليم الذى تعطيه أفعال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقواله ؟ .

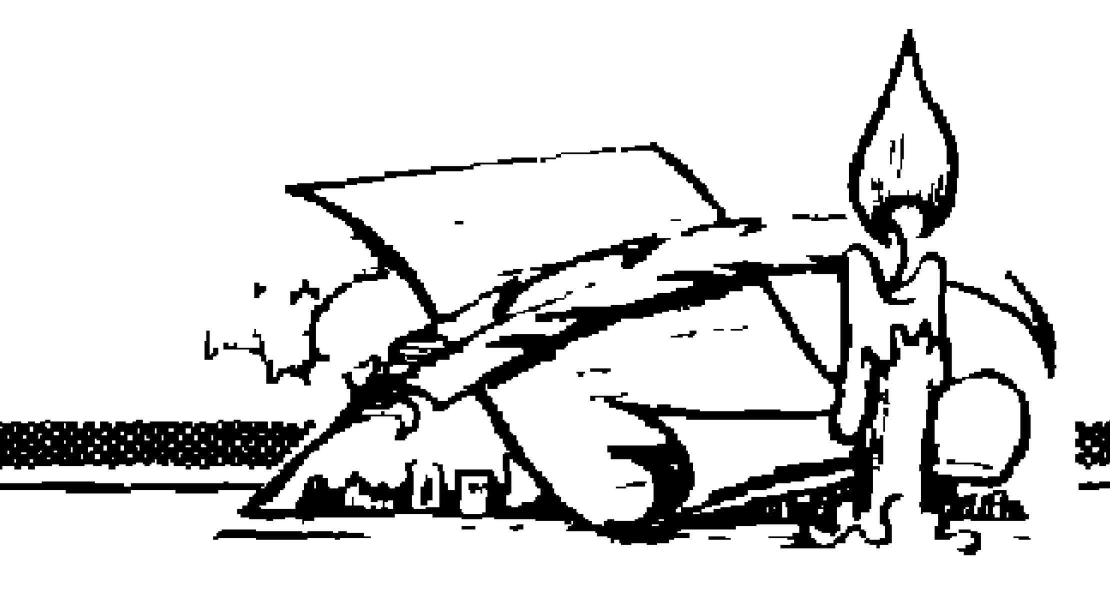
هل قال رسول الله عليه الصلاة والسلام بيتا واحدا من الشعر . . قبل تكليفه بالرسالة حتى يقولوا شاعر . . هل مارس رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الرسالة سحرا ؟ . . حتى يقولوا ساحر . . هل سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم

إلا أطيب الكلام فى أقواله . . وأطيب الأعمال فى أفعاله . . وكانوا يلقبونه بالأمين . . ويشهدون بأنه على خلق عظيم . .

وأنه حينها جاء بالرسالة اتهموه بالجنون .

هل هذا الكلام الذى قالوه كذبا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ينطبق على ما رأوه وسمعوه وعقلوه وفقهوه عن أشرف الخلق محمد عليه الصلاة والسلام ؟ . . طبعا لا . . ولكن آلات إدراكهم كانت تؤدى عملها بشكل طبيعى قبل تكليف محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة . . ولذلك لقبوه بالأمين وبصاحب الخلق العظيم . . الذى لا يكذب أبدا ولا يخون الأمانة .

ولكن بعد أن كلف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرسالة . . ألغوا عقولهم وأبصارهم وأسماعهم . . وبدأوا يتحدثون بهوى النفس . . كأنهم لا يعقلون ولا يبصرون ولا يسمعون .



إذن فالقول بأن الحق سبحانه وتعالى لم يخلق لهم أفئدة تفقه .. أو أبصارا ترى .. أو آذانا تسمع قول غير صحيح .. ولكنهم هم الذين عطلوا آلات الإدراك عندهم .. لأنهم لا يريدون أن يؤمنوا .. فلم يستخدموها .. ولو استخدموها الاستخدام السليم لآمنوا .

ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول : « وَلَقَدْ ذَرَأْنَا » .. أى خلقنا .. فمنذ ساعة الخلق حكم الحق سبحانه وتعالى على هؤلاء بأنهم من أهل النار .. مع أنهم لم يفعلوا شيئا بعد .. نقول إن هذا هو علم الله الشامل بكونه .. فالله سبحانه وتعالى علمه بلا حدود .. ولقد علم ساعة خلقهم أنهم من أهل النار .. وكيف يقول بعض الناس أن هذا شىء مستغرب ؟ .. مع أن علم الحق سبحانه وتعالى .. يشمل كل شىء فى الدنيا والآخرة .. ألم يقل نوح عليه السلام وهو يدعو ربه :

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾

﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾

(الآيتان ٢٦ و ٢٧ من سورة نوح)

من الذى أدرى نوح عليه السلام أن هؤلاء الكافرين .. لن يلدوا إلا فاجرا وكافرا .. إنه أخذ الحكم من المقدمات التى رآها

أمامه . . وهو يبلغ رسالة الله إلى قومه . . وقد عاش بينهم ألف سنة إلا خمسين عاما . . وإبليس ألم يقل :

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾

(الآيتان ٨١ و ٨٢ من سورة ص)

من الذى أعلم إبليس ؟ . . إنه سيغوى كل عبد غير مخلص لله سبحانه وتعالى . . الحق جل جلاله يبين لنا هذا فى قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

(الآية ٢٠ من سورة سبأ)

إذن فقد قال إبليس هذه المقولة بالظن . . لأنه أحس بتقبل آدم وحواء للغواية .



وإذا انتقلنا إلى الإنسان العادى .. أنت إذا رأيت ابنك لا يذاكر ويهمل فى دروسه .. ستقول له لن تنجح هذا العام .. وفعلا لا ينجح .. هل علمت الغيب ؟ أم أنك أخذت مقدمات وصلت بها إلى نتيجة .. والأستاذ الذى يدرس لفصل من عشرين تلميذا مثلا .. ويقول لن ينجح من هذا الفصل إلا عشرة .. وفعلا لا ينجح إلا عشرة .. هل يعلم هذا الأستاذ الغيب ؟ .. أم إنه حكم على التلاميذ من مستواهم العلمى ؟

إذا كان ذلك يحدث من مخلوقات الله .. بعلمهم المحدود وقدراتهم الضعيفة .. أتستكثر على الله سبحانه وتعالى وهو الخالق العليم .. أن يعلم يقينا أن مصير عدد من خلقه هو النار .. إذا كان خلق الله يصلون ظنا إلى نتائج تتحقق .. فهل لا يصل علم الله سبحانه وتعالى إلى نتائج يقينا .. طبعا يصل ويعلم يقينا .. مصداقا لقوله جل جلاله :

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (الآية ١٤ من سورة الملك)

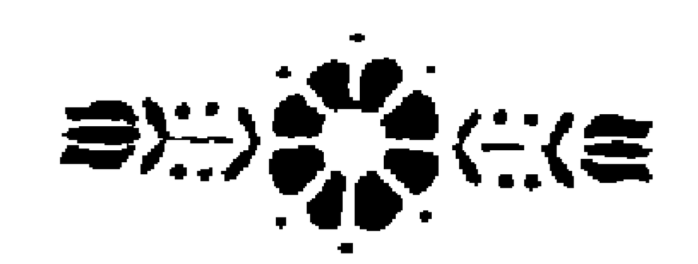
ذلك أن علم الله فوق قدراتنا وفوق كل ما يمكن أن نعلمه .. ولذلك من اليسير على الله سبحانه وتعالى أن يعلم مصير خلقه .. على أن بعض الناس يقف عند الحديث النبوى الشريف : (إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون

بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها) . . فكيف يمكن أن يكون الحساب عدلا ؟ . . مع أن إنسانا يعمل بعمل أهل الجنة حتى يصبح أقرب ما يكون منها ، ثم يجرى عليه القلم أو يسبق عليه الكتاب ليصبح من أهل النار . . وكيف يعمل أحدنا بعمل أهل النار ثم يجرى عليه القلم أو يسبق عليه الكتاب فيصبح من أهل الجنة . . مادام القلم أو الكتاب قد جرى . . فكأن دخول الجنة أو النار مقدر على بصرف النظر عن عملى . . لأن الكتاب قد غير من نتيجة العمل . . وهذا الكلام يقال كثيرا . . ويتخذ حجة من هؤلاء الذين أسرفوا على أنفسهم ويريدون أن يلقوا الذنب على غيرهم . . أو يريدوا أن يقولوا إن هذا مكتوب عليهم . . وهم لا يملكون معه شيئا . . تماما كما يقول المشركون فيما يبينه لنا الحق تبارك وتعالى فى قوله سبحانه :

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾ (الاية ١٤٨ من سورة الأنعام)

وهم أى المشركون بذلك القول . . يريدون أن يلقوا التبعة فى شركهم على مشيئة الله سبحانه وتعالى . . نقول لهم : نعم أنتم لم تخرجوا من المشيئة . . ذلك أننا قد بينا أن الذى آمن والذى كفر . . لم يخرج أيهما عن مشيئة الله . . فالذى آمن دخل فى

مشيئة الإيمان . . فأعانه الله على الهدى وحبب إليه الإيمان وكان مصيره الجنة . . والذى كفر وأشرك والعياذ بالله . . دخل فى مشيئة الكفر . . أى لم يعنه الله سبحانه وتعالى على الهداية . . بل تركه للشياطين يضلونه . . إذن لا المؤمن خرج عن المشيئة . . ولا الكافر خرج عن المشيئة :



نعود لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . . رسول الله عليه الصلاة والسلام أراد أن يحذرنا من وساوس الشيطان وهوى النفس . . وأن يفتح أمامنا باب الأمل ولا يغلقه . . حتى يأخذ من آمن حذره . . ويتعلق من عصى بتوبة الله سبحانه وتعالى وغفرانه . . ولذلك سمعنا فى الحديث الشريف : ان الإنسان يعمل الصالحات التى تجعله من أهل الجنة . . ولكن الشيطان الذى يركز إغواءه على المؤمنين لا يتركهم أبدا . . لأنه كما أخبرنا الحق سبحانه وتعالى بأن الشيطان يركز إغواءه على المؤمنين . . واقرأ الآية الكريمة :

﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾

(الآية ١٦ من سورة الأعراف)

إذن الشيطان لا يركز جهده على أماكن الخمور واللهو والفجور . . فهؤلاء انتهى من غوايتهم . . وهم لا يحتاجون إلى إغواء جديد . . لأنهم وقعوا فى الغواية . . ووافقت شهواتهم وهوى نفوسهم فأصبحوا من أعوان الشياطين . . ولذلك فهو غير محتاج إلى جهد معهم . . ولكنه يركز جهده على المصلين الطائعين . . يأتيهم من كل ناحية . . فيغريهم بالمال الحرام . . فإذا وجد عندهم مناعة يغريهم بالزنا . . فيزين لهم حسن وجمال

النساء المحرمات عليه . . فإذا لم يفلح فى ذلك أغواهم بالرشوة أو القمار أو الكذب أو شرب الخمر .

وهكذا يظل الشيطان يزين للمؤمن المعصية والخطيئة حتى يقع فيها . . فإذا فشل فى ذلك فإنه لا ييأس أبدا . . بل يأتيه عن طريق العبادة . . فيوسوس له أنه لا يحسن الوضوء مثلا حتى يتوضأ عدة مرات . . وكلما توضأ وسوس له الشيطان أن وضوءه غير مقبول . . وإذا صلى وسوس له الشيطان . . أن صلاته غير مقبولة أو غير كاملة . . ويظل يوسوس له من ناحية الإيمان حتى تصبح العبادة مشقة مع أن الدين يسر .

وهدف الشيطان من هذا كله . . أن يجعل العبادة شاقة على المؤمن فيكرهها . . أو يجعله ييأس من أن عبادته غير مقبولة من الله سبحانه وتعالى فينصرف عنها .

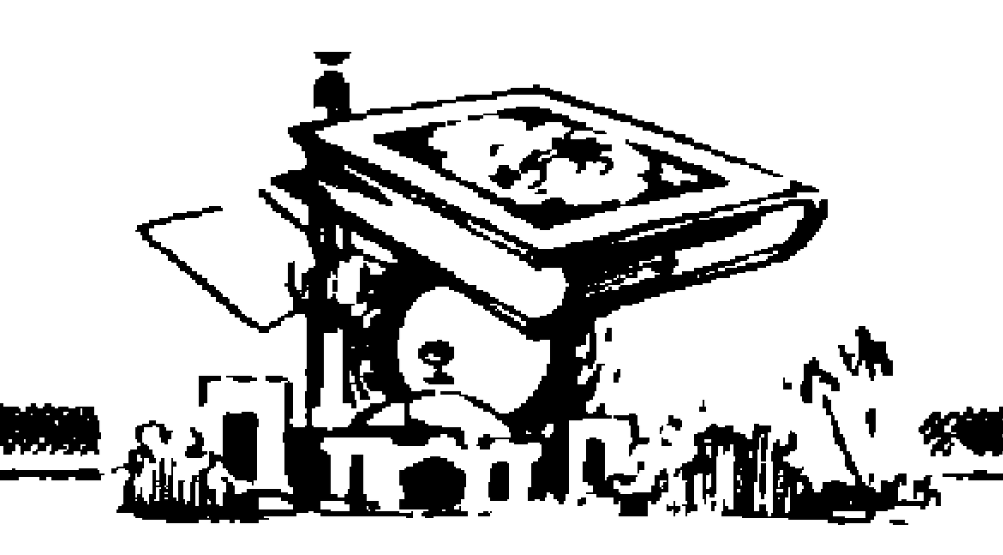
رسول الله صلى الله عليه وسلم . . يريد أن ينبهنا إلى مداخل الشيطان مع الإنسان المؤمن حتى نعرفها . . فهو عليه الصلاة والسلام يريدنا أن نعلم أن الشيطان لن يتركنا حتى نهاية الأجل . . فلا ييأس . . بل يوسوس لنا بأن يقول كفاك عبادة لقد ضمنت الجنة . . ويظل يردد هذا حتى نقتنع كذبا بمنطقه . . ونبدأ نقلل من الطاعات والعبادات . . ثم يغرينا بالمعصية فتزل قدمنا مرة بعد مرة . . حتى نأخذ طريق المعصية . . فيجرى

علينا القلم أو يسبق علينا الكتاب .. الذى قدره الله على العاصين والخارجين عن منهجه .. فتمتنع إعانة الله سبحانه وتعالى لنا على الهداية .

وكذلك الذين يرتكبون المعاصى لابد أن يتنبهوا إلى أن باب التوبة مفتوح أمامهم مادام فى الحياة بقية .. ومادامت لم تأت ساعة الاحتضار .. ولذلك عليهم أن يسارعوا بالتوبة .. فإذا سارعوا بها وعملوا عمل أهل الجنة من الصالحات .. دخلوا فى مشيئة الهداية من الله فأعانهم على الهدى وحببهم فى الإيمان وزينه فى قلوبهم .. ويبدل سيئاتهم حسنات .. ويصبحون من أهل الجنة .

وهكذا كما نرى فإن الحديث الشريف .. لا يعنى أن الإنسان الذى يعمل صالحا يدخل رغم طيبات أعماله النار .





نأتى بعد ذلك إلى سؤال يتردد عند الذين يريدون أن يشككوا فى عدل الله سبحانه وتعالى .. وأن يدخلوا اليأس فى قلوب الناس حتى ينصرفوا عن العبادة .. يقول هؤلاء .. إذا كان الحق سبحانه وتعالى فى علمه أننى من أهل الجنة أو من أهل النار والعياذ بالله .. ألا يكفى ذلك دون حاجة إلى عمل ؟ ..

نقول لهؤلاء إن الحياة الدنيا هى دار اختبار للإنسان .. وهناك فرق بين الأقوال والأفعال .. فالإنسان قد يقول أشياء كثيرة .. ثم لا يفعلها حين يأتى وقت الفعل .. فقد يقول لك الجندى قبل المعركة .. عندما يبدأ القتال سأقتل عشرين جنديا من الأعداء .. وعندما يبدأ القتال فعلا .. يكون أول من يهرب من المعركة .. أو قد يقول لك إنسان إذا فعلت كذا سأعطيك ألف جنيه .. وفى ساعة العطاء يبخل ولا يعطيك شيئا .

والحق سبحانه وتعالى يلفتنا إلى ذلك فى كتابه العزيز فيقول :

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

(الآية ٨٩ من سورة البقرة)

هذا بالنسبة لليهود .. فقد كانوا يقولون للكفار من أهل المدينة .. أتى زمان رسول جديد .. لنؤمنن به ولنتبعه

ولنقتلنكم به قتل عاد وإرم .. ثم عندما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم .. كان اليهود أول من كفر به وحاربه وتآمر على قتله .. وقوم فرعون طلبوا من موسى على نبينا وعليه السلام أن يرفع عنهم العذاب ووعدوه بأن يؤمنوا .. فلما استجاب الله لموسى عليه السلام لم يؤمنوا وظلوا على كفرهم .. وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾

(الآية ١٣٥ من سورة الأعراف)

والقرآن الكريم ملىء بالآيات .. التى تبين لنا كيف أن الكفار والمنافقين وغيرهم .. يقولون أو يعدون بأشياء .. فإذا جاء وقت تنفيذ الوعد فإنهم لا ينفذون .

إذن فهناك فرق بين القول والفعل .. وحتى لا يأتى الإنسان مجادلا يوم القيامة .. ويقول يا رب لو دعوتنى للإيمان لآمنت .. ولو أرسلت رسولا لاتبعناه .. ولو دعوتنا لنعمل صالحا لفعلنا .. فلابد أن يمر الإنسان بتجربة عملية .. حتى يكون يوم القيامة شهيدا على نفسه .. ولا يأتى ليقول يارب لو هديتنى لاهتديت .. لأنه جاءته الهداية ولم يتبعها .. ولا يقول لو أرسلت رسولا لكنت أول من ينصره .. لأن الله أرسل الرسول فعلا فكان أول من حاربه .. إذن فلابد يوم القيامة أن

يكون الإنسان شهيدا على نفسه فلا يجادل ساعة الحساب . . لأنه مر بالتجربة العملية ورسب فيها . . وذلك مصداقا لقوله عز وجل :

﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾

(الآية ١٤ من سورة الاسراء)

ولكن هذا الامتحان . . امتحان الإيمان فى الحياة الدنيا لا يحدث لأن الله لا يعلم . . أو لأنه سبحانه وتعالى يريد أن يزداد علما . . فالله جل جلاله محيط بعلمه كل شىء . . ولكن ليكون الناس شهداء على أنفسهم . . تماما كما نعقد فى الدنيا امتحانات لطلبة الجامعة . . إن الجامعة لا تعقد هذه الامتحانات لتتعلم من الطلاب . . فهى التى علمتهم . . ولكنها تعقدها حتى يكون كل طالب شهيدا على نفسه . . فإذا جاء الطالب وادعى أنه ممتاز . . أخرجوا له ورقة الإجابة فيرى أنه راسب . . ولا يستطيع أن يجادل .

إلى هنا نكون قد وصلنا إلى أن أولئك الذين وصفهم الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم بأن لهم قلوبا لا يفقهون بها . . وأعينا لا يرون بها وآذانا لا يسمعون بها . . أنهم هم الذين عطلوا آلات الإدراك فيهم ولم يستخدموها فيما خلقها الله من أجله . . وأن الإنسان يجب أن يحذر وسوسة الشيطان . . لأنه

إن اتبعها نقلته من مشيئة الإيمان إلى مشيئة الكفر . . وفى كل من الحالتين هو لا يخرج عن مشيئة الله سبحانه وتعالى . . وإن الحياة الدنيا اختبار وامتحان لنا لنكون شهداء على أنفسنا . . ولا نأتى مجادلين يوم القيامة . . ولكن علم الله تبارك وتعالى محيط بكل شيء .

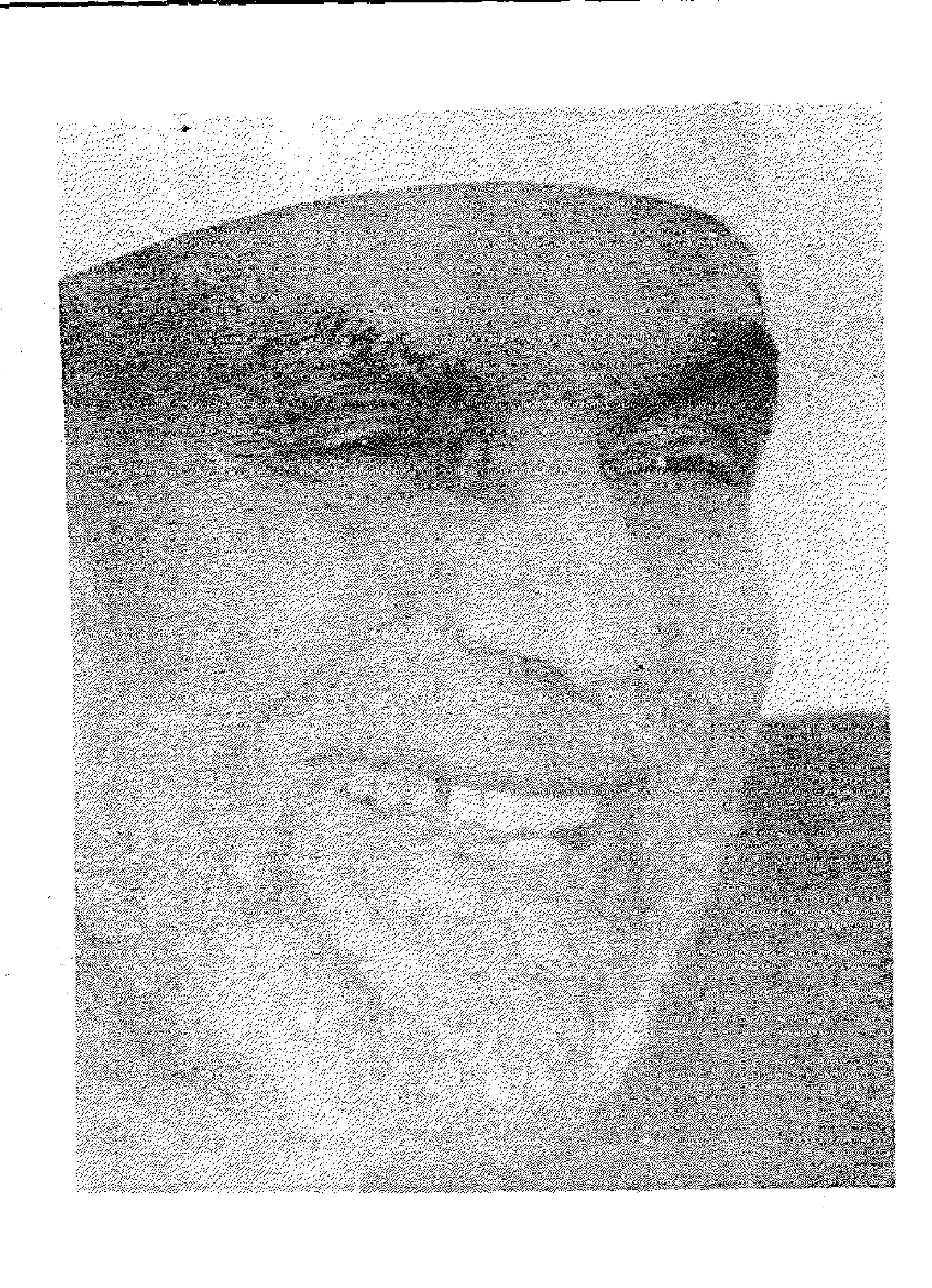


الفهـرست

دعاء

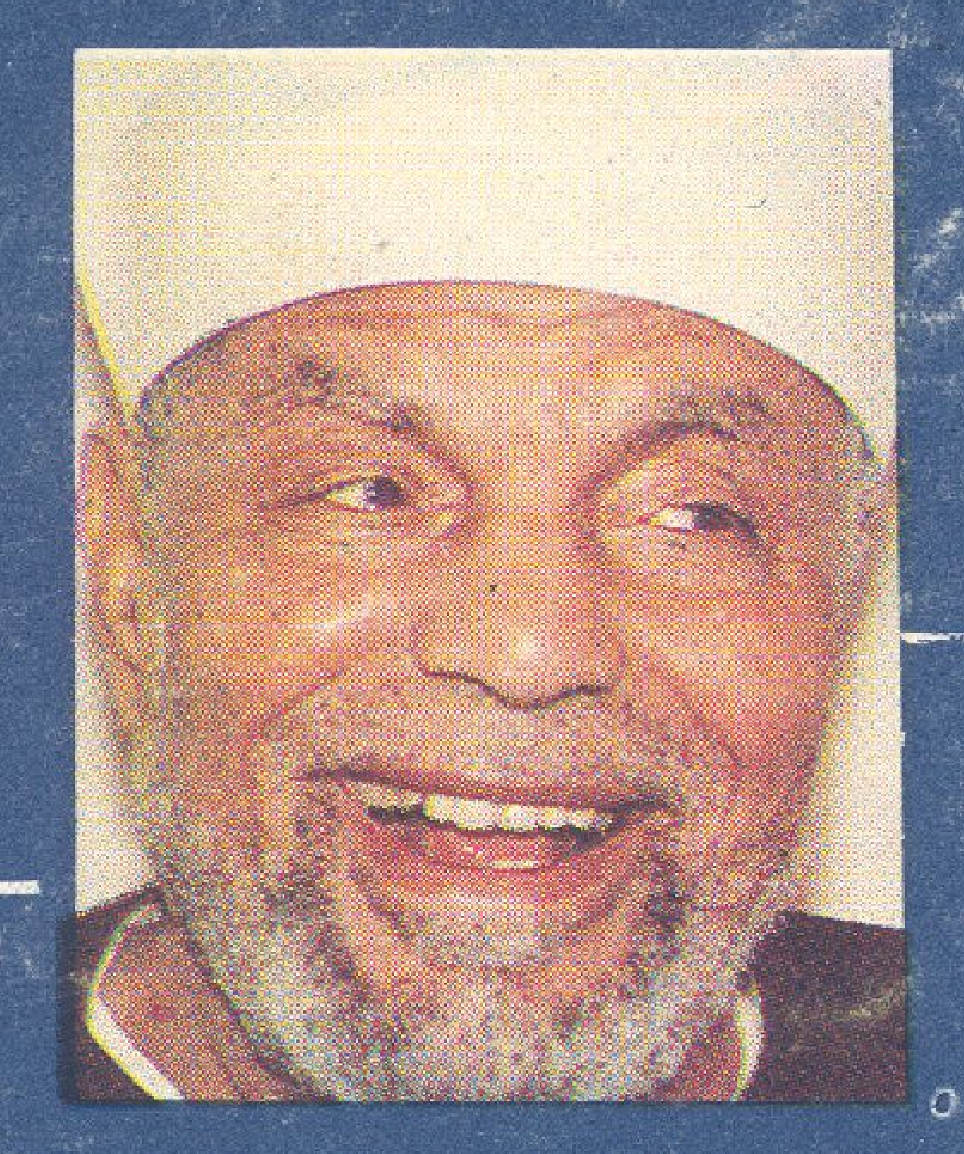
يا رب خذ عبادك الى طريق الهدى
والنور وافتح لهم من ابواب رحمتك
وايسرهم على الطريق ، ومن ابواب مغفرتك
ما يمحو ذنوبهم ومن ابواب توفيقك ما
يدخلهم الجنة انك انت السميع العليم

محمد متولي الشعراوي



الترقيم الدولى
٨ ـ ٣٤٣ ـ ١٢٤ ـ ٩٧٧

رقم الايداع
٨٩ / ٩٢٩٣



مكتبة الشعراوى الاسلامية ..

مكتبة تتوارثها الأجيال

هذا الكتاب

عزيزى القارىء : بتوفيق من الله وعونه . . وافق فضيلة الإمام الشيخ محمد متولى الشعراوى . . أن تتولى « مؤسسة أخبار اليوم » بالتعاون مع فضيلته فى إنشاء « مكتبة الشعراوى الاسلامية » . .

وهذا العمل المبارك - عزيزى القارىء - يختلف عن كل ما نشر من خواطر فضيلته حول القرآن الكريم فى الصحف والمجلات ، على كثرتها .

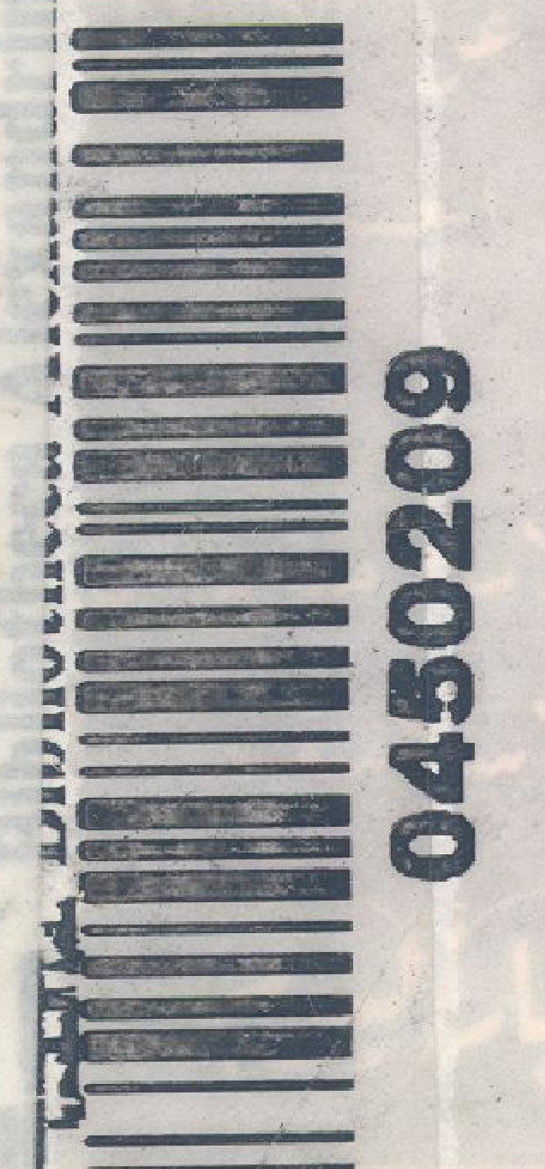
لقد اعتاد الإمام الشعراوى أن تكون اجاباته على أسئلة السائلين على قدر السؤال ، وأما عن خواطره . . فكان الحديث بقدر ما تتطلبه الآية من تفسير .

أما هذه المكتبة - عزيزى القارىء - فتتناول القضايا الدينية كموضوع متكامل . . تشرح أبعاده . . توضح الحكمة منه . . تجلى ما صعب فهمه ، ترد على الاباطيل والافتراءات التى تثار بين وقت وآخر حول الدين الاسلامى الحنيف .

لقد تم - بحمد الله - الاعداد لأربعة وعشرين كتابا ، تشكل فى مجموعها مكتبة اسلامية فريدة . . سوف تصدر - ان شاء الله - متتابعة عن مؤسستك « أخبار اليوم » . .

ان كل كتاب منها سيتناول موضوعا مستقلا لا غنى لكل مسلم [illegible] به : القضاء والقدر . . الغيب . . الإسراء والمعراج . . حياة القبر [illegible] الجنة والنار . . الانسان والشيطان . . الخ . .

وعليك - عزيزى القارىء - أن تتأكد - وأنت تنشىء مكتبتك [illegible] الغلاف الخارجى لهذه الكتب يحمل عنوان « مكتبة الشعراوى [illegible]



١٥٠ قرشا